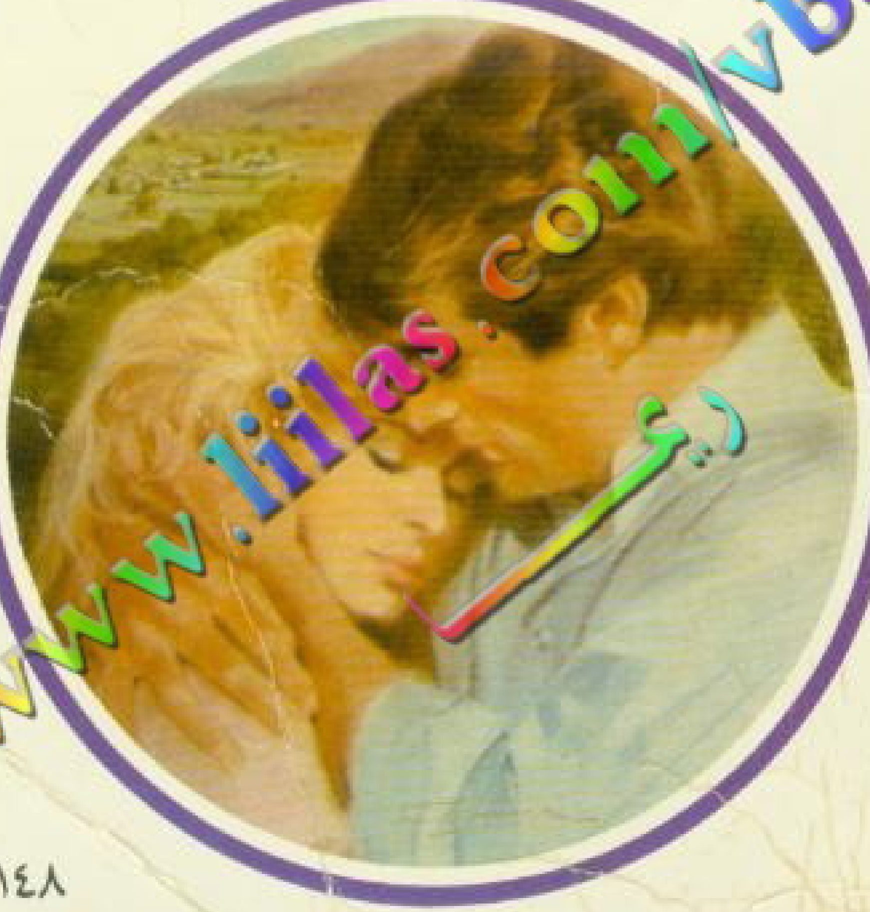
روايات عبير

بالاشتراك مع راديو مونت كارلو

رحلة العمر
إلى
شواطئ اليونان
وجزره

مارغريت روم

وحدهما فقط



١٤٨

وحدهما فقط

تأليف: مارغريت روم

حطّ من كرامتها ان يجبرها على قضاء شهر العسل وحدهما في كوخ بسيط لا تختلف الحياة التي يوفرها كثيراً عن حياة الكهوف البدائية، حيث العاصفة التي تنتظرهما لا تبقي ولا تذر والعواطف ثائرة كالبحر القريب. ارادت ان تهرب بأي ثمن حتى اكتشفت ذات يوم ان هناك شيئاً يمكنها ان تتعلمه من رجل الغابات، شيئاً يفتح عينيها على عالم آخر لم تكن تحلم بوجوده من قبل...

١ـ عودة المغتربين

دخان خفيف يتهادى من الشموع المثبتة في شمعدانات صغيرة، مصنوعة من الفضة المستخرجة من مناجم الجزيرة الخاصة. الملاعق والشوك والسكاكين المرتبة بذوق على مائدة العشاء تحمل شعار «مملكة الانسان» المثلث القوائم. كؤوس البلور المانكسي تشعشع كلما حركتها الأيادي. المفرش والمحارم الكتانية، التي تحاك في مطابخ أكواخ نائية، تبدو ناصعة نضيرة حول ازهار الفوشية المنسقة بروعة وسط المائدة، هذه الازهار الجرسية الشكل التي تزدهر بجنون في أواخر الصيف، فيغمر لونها الأرجواني كلّ تل ووادٍ وسياج وحديقة.

الجدران المكسوة بالخشب تحمل لوحات لتاريخ الجزيرة. مراكب القراصنة الاسكندنافيين تقتحم البحار الهائجة، وهي مكتظة من مقدماتها الى مؤخراتها برجال متوحشي النظرات يعتمرون خوذاً ذات قرون، كانوا قد انقضوا على الجزيرة لينتهكوها ويسلبوها قبل ان يدمغوا أهلها باسمائهم ووجودهم. ثم لوحات متسلسلة أخرى لكل ملك اسكتلندي ولورد انكليزي كان قد انتدبَ نفسه حاكماً على هذه الارض التي كانت، بسبب حجمها الصغير وموقعها القريب، عرضة لغزوات جيرانها الانكليز والاسكتلنديين والايرلنديين والنروجيين.

لمن يدين الشعب المانكسي بولائه؟ هذا الجواب كان متمثلاً في لباس الفتاة التي تقوم بدور المضيفة وتجلس الى أقصى المائدة. فعلى ثوبها الأبيض البسيط والغالي الثمن، كانت تضع وشاحاً ذا مربعات يتميز بفردية تحاكي فردية سكان الجزيرة، الوانه قرمزية كما الخلنج، خضراء كالحقول، ذهبية

كالوزّال وزرقاء كالبحر المحيط بمملكتهم الصغيرة.

رفعت كلير رأسها ونظرت عبر المائدة فالتقت عيناها بنظرة عابسة من أبيها تشير الى امتعاضه. عضت شفتها لتكبح عبسة استياء اوشكت ان تفسد صفاء تعابيرها المثالية، ومع ذلك تورد وجه ابيها قليلاً حين قرأ لمحة الازدراء في عينيها الرماديتين المصوبتين اليه فوق رؤوس الضيوف الغافلين عن مراسلتها البصرية المتّحدية. فوالدها، غارف رجينالد فوكسديل لم يكن معتاداً على التأنيب بأي شكل، بل على فرض القانون على الجميع، بمن فيهم ابنته المتماسكة الشخصية والتي تثير الغضب احياناً لفرط رباطة جأشها.

ولكونها أصبحت بالغة الحساسية تجاه ردود فعل أبيها، ولمعرفتها التامة بأن الغرض المهم من حفلة العشاء هذه، قد ينجح او يفشل تبعاً لانشراحه او انقباضه، فقد قررت ان تلجأ الى الدبلوماسية، حيث أهدته احدى ابتساماتها النادرة المفاجئة التي ما اخفقت ابداً في احداث النتيجة المرجوة منها. وكما توقعت، استجاب بانشراح لتلك الاشراقة الحلوة التي تفاجئه بها في اكثر اللحظات احتداماً، والتي طالما امتدحها وشبهها بلهب ينفجر في قلب حجر ماسّي، وفي احدى المرات شبّهها بالفجر حين يشرق فيذيب نهراً متجمداً.

لكن نظرة والدها المؤنبة جرحتها بالرغم من تظاهرها بعكس ذلك، فالتفتت الى رفيقها وسألته بسرعة:

- جوناثان، هل يعتبرني الناس فتاة باردة جامدة الأحاسيس؟

ندمت فوراً على ضعفها، ورد الشاب قائلاً:

- بالطبع لا يا عزيزتي.

يا لجوابه العادي المضجر!

ثم سرعان ما خجلت من انتقادها الفكري للرجل الذي عاهدت نفسها على الزواج منه، فهزت كتفيها وحاولت اقفال الموضوع بقولها:

- كان سؤالاً سخيفاً.

اطلقت ضحكة قصيرة وتابعت:

- لا بد ان نظرات أبي الغاضبة تحدث فيّ تأثيراً أعمق مما كنت اتصور. فليس من عادتي ان اهتم بتفحص مشاعري الداخلية.

لكنه أثار غضبها على الرغم منها حين اومأ برأسه موافقاً وقال معلقاً بتأمل:

- تبدين متوترة قليلاً هذا المساء. ارجو الا تعتادي على ذلك يا حلوتي، فانا اعوّل على تأثيرك الهادىء المتزن وعلى رباطة جأشك التي تميّزك عن سائر الناس. انت اشبه بمملكة مفعمة بكرامة فائقة تنشرها حولها. وفيك شيء موروث من الكبرياء المحصنة التي لا يمكن للانسان العادي ان يكتسبها عن طريق التقليد.

بدا غافلاً عن انه قد ناقض لتوه انكاره السابق لجمود مشاعرها، ففتحت فمها لتحتج على كلامه، ولكن قبل ان تستطيع التلفظ بشيء شعرت للمرة الثانية بنظرات أبيها الصارمة تذكّرها بواجباتها كمضيفة دمثة. اومأت له بسرعة لتفهمه انها تبلغت رسالته، ثم فكرت في نفسها، وتعابير وجهها الدمثة تخفي افكارها الخاصة، انه بالفعل انسان لا يطاق، يطلب منها الكثير مقابل مجهود بسيط من جانبه! ان مركزها كواحدة من أنجح مضيفات المجتمع لا يمكن ان يزعزعه شيء، الا انها بذلت جهوداً اضافية هذه الليلة كي تؤمن نجاح حفلة العشاء. فالضيوف اختارتهم بعناية فائقة لتضمن الانسجام التام بين بعضهم بعضاً، كذلك أمضت ساعات طويلة في ترتيب المائدة وفي تعيين الأماكن المناسبة لجلوس الضيوف، وقد امتدح الجميع جودة المآكل الممتازة والشراب المرافق لها. لكن بالرغم من تلك الجهود، دارت الاحاديث بتقطع، وحتى باقتضاب احياناً. وهذا الفشل نتج في رأيها، عن اصرار ابيها الغريب على الاحتفاء بضيوفهم الكنديين على الطريقة التقليدية الموروثة.

أحست برغبة في ان تتركه يشنق نفسه بحبل اصراره العنيد هذا، لكن حين وقع بصرها على وجه تشاريتي ماكلاود التعيس غيرت فكرها حالاً، وسألتها بتهذيب:

- ارجو ان تستمتعي باقامتك في الجزيرة يا سيدة ماكلاود. أغلب الظن انك تجدينها مختلفة تماماً عن مونتريال التي ولدت وعشت فيها؟

سارعت الضيفة الى التمسك بحبل الانقاذ هذا، فابتسمت لكلير بامتنان وقالت بلكنة أهل ما وراء الاطلسي الجذابة:

- ارجوك ان تناديني تشاريتي! هذه أول مرة ازور فيها جزيرتكم، الا اني

سمعت عنها قصصاً عديدة تناولتها عائلة زوجي جيلاً بعد جيل عن الوطن الأم الذي ما فارق ذاكرة احد منهم، بالرغم من مرور مئة سنة ونيف على هجرة أول شخص من عائلة ماكلاود الى كندا. لهذا السبب، استطعت، منذ وطئنا الجزيرة، ان اشارك دنكان مشاعره كانسان منفي يعود الى وطنه.

اما زوجها، وهو رجل صريح طيب استطاع ان يحتفظ بلهجة اسكتلندية ايقاعية، فقد قهقه بصوت خفيض واضاف قائلاً:

- ونحن نشكل فقط مقدمة العائدين ركضاً الى هنا، فهناك كثيرون سيلحقون بنا! يوجد في مقاطعتنا نادٍ مانكسي - كندي مزدهر، ولم نستطع مقاومة اغراء المجيء حين سمعنا في ذلك النادي بالاستعدادات القائمة هنا على قدم وساق للاحتفال بالذكرى الألفية لتأسيس برلمان تنوولد، أقدم هيئة تشريعية في العالم، وبأن الجزيرة ترحب بقدوم اكبر عدد من المنفيين الى شواطئها.

ثم استدار الى والد كلير واردف وعيناه تبرقان:

- هل سكانكم على استعداد لأن يكابدوا ثانية غزواً آخر، يا سيدي؟

ظل غارف فوكسديل محتفظاً بابتسامته الصارمة، واستطاع بطريقة جافة متعالية، طالما استهجنتها كلير، ان يقلص محاولة دنكان الدعابية الى حد التفاهة، وذلك بقوله:

- ضيوفنا لن يأتوا هنا في مهمة تعذيبية يا سيد ماكلاود. فسواء كانت جذورهم سلتية او اسكتلندية او انكليزية او اسكندينافية، فذلك أمر ثانوي... دراسة جزيرتنا التاريخية تثبت ان هذا الضيف ما يزال قادراً على الادعاء بانه يتحدر من أصل مانكسي أصيل، بالرغم من امكانية انتمائه الجذري الى أي من تلك الحضارات الاربع. فعائلة فوكسديل مثلاً، قد يعود تاريخ نشوئها الى تاريخ الغزو النرويجي الأول قبل الف سنة.

وهنا رفع رأسه بشمم واردف:

- ومع ذلك اعتبر نفسي مانكسياً في الدرجة الاولى وقبل كل شيء.

لم تكن لدى كلير أية فكرة عن المركز الذي توصل اليه دنكان ماكلاود في بلده المتبنى، وكان بوسعه، ربما، ان يستنكر هذا التباهي الشديد من صاحب البيت، لكنها تعرف ان أباها كان يسعى الى جذب اكبر عدد من المهاجرين الاثرياء للمساهمة في مشروع انمائي للجزيرة. ولو لم يكن

ماكلاود يتمتع بوضع مادي راسخ لما كان دعاه الى العشاء.

لكنها تنفست الصعداء حين تقبل دنكان بايماءة مرحة، السيكار الذي عرضه عليه والدها، وادركت كعادتها ان ذلك اشارة الى وجوب انسحاب السيدات فنهضت واقفة وقالت بكياسة:

- سيداتي، هل لنا ان نشرب القهوة في غرفة الاستقبال؟ يخيل الي ان الرجال الاكارم يرغبون أيضاً في خوض أحاديث مهمة، ولذا اقترح ان نخلي لهم الساحة.

وهنا وقفت عمتها ايفي بخفة رشيقة اكتسبتها على مر السنوات، وكانت النتيجة ان وجدت تشاريتي نفسها تجلس في غرفة الاستقبال على مقعد مريح، ترشف القهوة من فنجان رقيق من الخزف الصيني، وقبل ان تعي كيف حدث كل ذلك في لحظات معدودة!

لاحقت تحركات كلير بنظرات تأملية وهي تجلس على الأريكة المقابلة وتريح عليها رأسها الذي بدا مثقلاً بتاج من الشعر الأشقر المجدول. لقد حاولت تشاريتي طيلة المساء الا تحدق في هذه الفتاة الفائقة الجمال التي تمشي وتتحرك برشاقة ملكية، لكنها عجزت الآن عن مقاومة ذلك الاغراء فراحت تستمتع بالتفرس فيها بلا شبع.

مرت لحظات قليلة قبل ان تشعر كلير بتحديقها المركز، فقوست حاجبيها بحركة ناعمة مما اضطر تشاريتي الى الاستجابة لاستفسارها الأخرس. انها تشعر بالحرج وتبدو وقحة التصرف امام هذه الفتاة التي أثارت فيها اندفاعاً غريباً الى ان تنحني لها لدى تعرّفها اليها، ولذا راحت تفتش في ذهنها عن موضوع ما، من شأنه ان ينسيها تحديقها السليط اليها. وقالت في الأخير:

- اود ان اشكرك يا عزيزتي على ما اظهرت من اهتمام حين خشيت ان ينجرح احساس زوجي من كلام والدك. لم يكن هناك موجب لقلقك، لأن زوجي ما كان ليستطيع التوصل الى مركزه الحالي لو لم يكن يتمتع بجلد سميك للغاية، تحسده عليه الفيلة!

توردت وجنتا كلير قليلاً لخجلها من تصرف أبيها، واجابت تطمئن ضيفتها بكبرياء هادئة:

- ان والدي يميل وللأسف، الى الظهور بمظهر الرجل الصارم الفظ لكنه

لا يتعمد بتاتاً ان يكون كذلك. فهو كعضو مهم في المجتمع المانكسي تترتب عليه مسؤوليات ثقيلة، ومع اني لفت نظره عدة مرات الى وجوب الاسترخاء، الا ان رداء السلطة قد اصبح جزءاً من شخصيته الى حد يصعب عليه ان ينزعه.

اومات تشاريتي بموافقتها على الاعتذار المهذب، لكنها خنقت رغبة ملحّة في ان تحث كلير على تطبيق نصيحتها على نفسها وعلى تذويب الجليد الذي يغلفها كي تخفف من وحدانيتها، ولتحظى بالتالي بمحبة وتقدير الآخرين الأسعد منها حالاً والأقل مثالية. ولكنها كتمت هذه الأمنية في نفسها وسألتها:

ـ هل يحمل والدك لقب النبلاء؟

تبادلت كلير وعمتها ابتسامتين خفيفتين وقد ابهجها هذا السؤال. هبت ايفي تدافع عن اخيها، لتحاول بالدرجة الاولى الا تخيب آمال تشاريتي ولتحافظ على كرامة العائلة بالدرجة الثانية، فقالت بحماسة:

ـ لم يتح ابداً للتقاليد الاسكندينافية ان تنقرض في الجزيرة، ولذا يمكنني القول بثقة ان سلالة فوكسديل قد احتفظت بنقائها عبر القرون. والفضل في استمرار هذه الاصالة يعود الى عاداتنا الزواجية القديمة حيث كان العروسان يلعبان دوراً صغيراً جداً في تحضيرات الخطوبة والزواج. كانت المفاوضات يجريها آخرون... من جهة الفتاة يجريها أهلها، فيما يمثل العريس رجل من اقربائه او اصدقائه. ولمحاولة الحفاظ على نقاء السلالة من امتزاجها بأي دم غريب، لم يكن ليسمح بتعريف الشبان الى الفتيات الا اذا كان الفريقان متساويين على الصعيد الاجتماعي. هذه القاعدة تمسكنا بها حتى القرن الحالي تقريباً، وهكذا ترين يا سيدة ماكلاود، ان عائلة فوكسديل تتميز بتراث اجتماعي حصين بالرغم من سقوط حقها في حمل الألقاب.

اخذت تشاريتي توضّب في اضبارات ذهنها ما سوف ترويه لاصدقائها في كندا من تفاصيل حول العادات الطريفة التي ما زال المانكسيون يمارسونها منذ قرون طويلة وحتى اليوم الحاضر! حدقت في وجه كلير المتسلي وقالت برهبة ألهث انفاسها:

ـ وهل طبقت عليك هذه الطريقة أيضاً؟ هل اختار لك والدك خطيبك

بنفسه كي يحافظ على نقاء سلالة فوكسديل؟

أجفلت كلير داخلياً من سؤالها الفج، وانفرجت شفتاها لتطلق احتجاجاً مناسباً الا ان الانكار مات على فمها حين ومضت في ذهنها ذكرى بداية خطوبتها، والطريقة التي عزلها ابوها بها عن سائر الشبان الصغار الذين كانوا في سنها، والى ان فاجأها في عيد ميلادها التاسع عشر بدعوة جوناثان هيوود ووالديه الى العشاء... تصارعت في نفسها مشاعر مذهلة، فبدأت تكشف في طوايا ذاكرتها عن حوادث أخرى ما لبثت ان امتزجت ببعضها البعض لتشكل صورة مؤامرة، تهز النفس وتستعصي على الادراك في نفس الوقت.

لقد استطاعت تشاريتي ماكلاود، بسؤال واحد، بريء ولاهث، ان تمزق الغشاوة عن عينيها وتكشف لها كم كانت ساذجة وغبية حين اعتقدت آنذاك ان موافقة ابيها على خروجها مع جوناثان نابعة من قناعته بانها بلغت سن الرشد، وبالتالي صار من حقها ان تعيش حياتها الخاصة. كان يحاول في الواقع، وبطريقته الباردة الجامدة، ان يكفر عن السجن الانفرادي الذي اسرها فيه خلال سنوات مراهقتها، حيث كان من المفروض ان تستمتع بالحياة كطائر حرّ طليق! لا عجب انها رحبت وقتئذ برفقة جوناثان بالرغم من رتابتها وفتورها الشديدين...

في تلك اللحظة دخل الرجال غرفة الاستقبال فانقذتها السماء من محاولة الرد على السيدة ماكلاود. داخلها شعور أكيد بأن عينيها تفضحان صدمتها وان وجهها يبدو شاحباً وفمها يتقلص ألماً، لكنها تنفست الصعداء حين امتنعت تشاريتي، الثاقبة البصر، عن ابداء أية ردة فعل او ملاحظة. ولأول مرة، شعرت بالامتنان لتعاليم أبيها التي دربتها على الانضباط الذاتي القاسي، والتي جعلتها الآن تستدير صوب الباب لترحب بضيوفها بتماسك واتزان كعادتها.

لا بد ان المشروع الذي خطط له أبوها باتقان ليعرضه على دنكان ماكلاود قد نال الموافقة المطلوبة! فكرت كلير في نفسها حين لاحظت التعبير الدمث على محيا أبيها وهو يتخذ مجلسه الى جوار تشاريتي، ويستعد للخوض معها في حديث ودي مهذب. كذلك بدا جوناثان راضياً عن نتائج المحادثات القصيرة. راحت تراقب دنوه بنظرات جديدة حادة

الانتقاد، لكنها عجزت عن ايجاد أي عيب في الشكل الخارجي لهذا الرجل الذي يعتبر عريساً ذا حظوة في الوسط الاجتماعي الراقي. كان مفرط الاناقة في لباسه، لا يرتدي الا البزات المفصلة خصيصاً لتناسب قامته النحيلة، فيبدو نموذجاً مثالياً للرجل الواسع الخبرة الذي لا يستغني عنه في أية حفلة او اجتماع، ينتمي الى كل النوادي الراقية ويبرع تقريباً في كلّ ما يستجد من النشاطات الترفيهية السائدة.

خلفيته الحياتية كانت أيضاً خالية من العيوب كصورته. انه الإبن الوحيد لعائلة مانكسية- انكليزية، ثرية ومميزة، تمتد جذورها عميقاً في الجزيرة، كجذور عائلة فوكسديل تماماً. وبما ان اباه قد تقاعد قبل بضع سنوات وصار هو المسؤول الوحيد عن ادارة أقدم شركة للمحاماة في الجزيرة، فان مستقبله يبدو مؤمناً تماماً من الناحية المادية.

تنهدت حين جلس باسترخاء الى جانبها على الاريكة، ولما غمر يدها بيده الدافئة، تساءلت لماذا لم تتسارع خفقات قلبها، ولماذا لم تشعر بأية رغبة في لمس شعره الاشقر حين قرب رأسه من رأسها ليهمس لها شيئاً، ولماذا ارتجف قلبها اشمئزازاً من الفم الذي بدا لها رقيقاً من قبل انما بدأت ترى الآن ان رقته ما هي الا دلالة ضعف. وهنا ادركت ان توهمها السابق كان السبب الاساسي الذي جذبها اليه. فمنذ وفاة أمها تملكها جوع الى الحب والحنان وأوجد فيها استعداداً لأن تميل الى أي رجل يظهر لها مزايا وطباعاً تختلف كلياً عن مزايا أبيها وطباعه.

وغمغم لها هامساً:

- هل اشتقت الي؟

ثم تابع بدون ان ينتظر جوابها:

- العجوز ماكلاود يبدو متحمساً جداً لمشروع والدك. فهو لم يلمح فقط الى استعداده الشخصي لدعمه مادياً، بل وعد أيضاً ان يحدّث اصدقاءه بشأنه ويحصل على دعمهم له. لقد اتى على ذكر شخص معين قال انه واثق الف في المئة من دعمه للمشروع وهو مهاجر مانكسي على غراره استطاع ان يجمع ثروة طائلة تفوق بكثير ما يستطيع رجل واحد ان يصرفه طوال عمره!

رمقته بنظرة سريعة، اذ استغربت نبرة الحقد المرير في صوته الا انه قابل نظراتها بتعبير ليّن وبعينين زرقاوين خاليتين من القلق.

رن صوت دنكان ماكلاود في ارجاء الغرفة وهو يخاطب زوجته قائلاً:

- تشاريتي، هل جئت معك برقم هاتف رولف رامسي؟ اني اود الاتصال به، وفي اسرع ما يمكن.

استدارت زوجته اليه وأجابته بوجه مشرق:

- بالطبع جئت برقمه! انت تعلم اني احب دائماً ان اتتبع اخبار ذلك الشاب.

فقال والد كلير وقد بدا عليه الاهتمام:

- رامسي؟ هذا الاسم محلي بالتأكيد؟

وفجأة احست كلير بالاجفال الذي قلص جسم جوناثان، فرفعت بصرها واستغربت ان ترى الشحوب يغطي وجهه وحبيبات العرق تزنّر شفته العليا.

وتابع أبوها مخاطباً اياه:

- أكيد يا جوناثان ان شركتكم تتعامل منذ زمن طويل مع زبون يحمل هذا الاسم. اذكر ان اباك كان يعلّق على اطواره الغريبة، وقد ذكر ان اجداده كانوا من المزارعين في جنوب الجزيرة.

اخذ جوناثان يجذب ياقة قميصه كما لو انها تخنق عنقه، ثم تنحنح بعصبية وأجاب:

- هل قلت رولف رامسي؟ اجل، لدينا زبون بهذا الاسم. اما بالنسبة الى غرابة اطواره، فاغلب الظن ان والدي كان يلمح الى ان المزرعة التي كانت ملكاً للعائلة قد عرضت للبيع قبل بضع سنوات. لم نعرف كيف درى السيد رامسي بهذه الحقيقة، لكنه ارسل يطلب الينا ان ننوب عنه في شرائها، مهما كان الثمن.

وهنا اخشوشن صوته حين اردف يقول:

- نفذنا تعليماته، وبعد ان كتبنا له وأبلغناه ان الصفقة قد تمت، فوجئنا بتلقي معلومات جديدة منه، اشار علينا فيها بأن نعيد مباني المزرعة المتداعية الى حالتها السابقة، أي ان نرمم الجدران والاسطحة، ونعيد تزويد المراحيض الخارجية بأدوات اخرى انما من نفس الطراز السابق. اما بيت المزرعة الاساسي فقد طلب ان نتركه من الداخل كما هو، وان لا

تلمس فيه اي شيء على الاطلاق ولا حتى ان نزيح آنية بسيطة من مكانها او ننزع غطاء سرير.

اكتشفت كلير انها كانت تقلص قبضتيها وهو يحاول جاهداً ان يبدو هادئاً بالرغم من تأثيرات الصدمة المفاجئة التي فتكت باعصابه. رطب شفتيه الجافتين كالورق بطرف لسانه، ثم تابع حديثه كي يشبع فضول المستمعين اليه بانتباه شديد:

ـ صرفنا آنذاك آلاف الجنيهات على شراء أدوات المراحيض القديمة الطراز والتي صارت اليوم تباع بأسعار خيالية كما الأثريات. كنا في بادىء الامر نكتب اليه لنعلمه بسعر كل قطعة ولنطلب موافقته، انما مع تكاثر تلك المراسلات تلقينا منه أخيراً رسالة موجزة طلب فيها ان نبتاع أية اداة مطلوبة وبأي سعر، وانه سيسوّي الحسابات في نهاية كل سنة.

فقاطعه غارف فوكسديل هاتفاً:

ـ يا لثقته العمياء في الآخرين!

ثم اضاف بجفاف:

ـ لكنه كان يعرف بالطبع انه يتعامل مع شركة عريقة.

وتساءلت العمة ايفي بشيء من السخط:

ـ لكن اذا كانت المزرعة قد بقيت خالية منذ ان ابتاعها السيد رامسي، فلا بد انها تحتاج اليوم الى اعادة ترميم.

فاجابها جوناثان مفسراً:

ـ لقد استخدمنا ناظراً ليعتني بالماشية القليلة وليشعل النار من وقت الى آخر للمحافظة على تهوية البيت.

فهتفت العمة ايفي معولة:

ـ ولماذا بحق السماء؟

هز جوناثان كتفيه واجاب بصوت لم يخل من نبرة حقد:

ـ لست أدري. الا اذا كان هذا التصرف مجرد نزوة يمارسها رجل ثري.

فقال دنكان ماكلاود متشدقاً:

ـ اذا كان السيد رامسي، زبونكم، هو نفسه رولف رامسي الذي نعرفه، فيمكنه بالطبع ان يحقق أية نزوة تعنّ على باله، فأول شخص في عائلة رامسي هاجر من عندكم، وهو على الارجح المالك الاساسي للمزرعة المذكورة- جمع ثروته من تجارة الفراء، وتعاقبت اجيال العائلة

لتزيد تلك الثروة، مما جعل اليوم من رولف رامسي واحداً من اغنى الرجال في كندا!

ثم ابتسم للوجوه المذهولة حوله واردف:

ـ وفوق ذلك، سوف تحظون جميعاً بالتعرف اليه قريباً! فالمعروف عن آل رامسي انهم يتمسكون بشعار ما حادوا يوماً عن تطبيقه، وهو. . . «اياك ان تغفر أذية، اياك ان تنسى معروفاً». ان رولف يدين لي بمعروف، ولذا اعرف تماماً اني اذا طلبت اليه المجيء فسوف يحط على هذه الجزيرة في أول طائرة تقلّه اليها!

٢ - زيارة الذئب!

كانت تشاريتي في قمة الانفعال، فالليلة موعد الحفلة الراقصة التي تشكل اهم حدث في مهرجان الجزيرة الاسكتلندي، وقد خصصت للاحتفال بالروابط التاريخية والتقليدية التي تشد الاسكتلنديين والمانكسيين بعضهم الى بعض. طوال الاسبوع تجمعت العوائل في الجزيرة، ومن المتوقع ان يحضر مئات الناس هذه الحفلة المخصصة للاعتراف بتحدر عائلة ماكلاود من آخر الملوك.

وقفت كلير لتحييها حين دخلت عليها فجأة في غرفة الاستقبال، اذ اتفقوا سابقاً على الالتقاء في بيت غارف فوكسديل ليتوجهوا جميعاً الى الحفلة. كانت تشاريتي ترتدي لأول مرة الوشاح الخاص بعائلة ماكلاود، وسألت مضيفتها بقلق:

- عزيزتي كلير، هل ابدو في مظهر لائق؟ هذه الليلة ستكون مصدر فخر لدنكان، ولا اريد ان اخذله بأي شكل!

قررت كلير الا تسمح لأي شيء بأن يفسد هذا الحدث المهم في حياة الزوجين، فقالت تكذب عليها:

- تبدين في منتهى الكمال.

- أنت متأكدة؟

نظرت المرأة بلهفة الى المرآة المثبتة على الجدار لتركز الوشاح على كتفها، ثم بدا عليها الرضي واستدارت الى كلير تقول بثقة:

- لم أر زوجي ابداً يبدو مميزاً كهذه المرة، انه يرتدي التنورة الاسكتلندية كما لو انه خلق ليرتديها.

راحت كلير تتخيل دنكان البدين مكسواً بتنورة وسترة مخملية ويحمل جزداناً ضخماً يتدلى من حزامه، فكاد المشهد يتغلب على تماسكها، الا انها استطاعت بطريقة ما ان تلجم الابتسامة التي احستها تدغدغ شفتيها.

كانت تشاريتي تنظر اليها باعجاب وهي تتأمل ثوبها ذا الثنايا العريضة الرافلة من خصرها الدقيق، وكتفيها العاجيتين المكشوفتين الا من شريط رفيع من التارتان الحريري المثبت بمشبك من الفضة. قالت لها مشرقة الوجه:

- انك كعادتك، تبدين فائقة الاناقة يا عزيزتي.

وفجأة أحست المرأة بتأثير توترها الانفعالي، فانطرحت بارتخاء على احد المقاعد، ثم اخذت ترمق كلير من بين جفنيها شبه المطبقين، وقالت تؤنبها بنبرة متضايقة:

- ألا تشعرين ابداً بالانفعال؟

فردت كلير بشيء من الاستغراب:

- لا. لا اعتقد ذلك.

- هذه الليلة سيكون الأمر مختلفاً اذ تلقيت لتوي خبراً رائعاً... رولف رامسي وصل الجزيرة قبل ساعة، وسوف ينضم الينا في وقت لاحق هذا المساء!

- أحقاً؟

لم تقصد كلير ان يبدو صوتها ضجراً، لكنها استثقلت هذه المهمة الجديدة، مهمة استقبال مهاجر آخر. سيظهر بالطبع حماسة كبيرة لمعرفة كل شيء عن شجرة عائلته وللاطلاع على تفاصيلها فرعاً فرعاً...

استطاعت تشاريتي ان تفسر تعبيرها تفسيراً صحيحاً فقالت لها مبتسمة:

- اعرف ما يجول في ذهنك! انت تقولين لنفسك، انه مجرد كندي آخر! لكن ثقي يا عزيزتي ان رولف رامسي يتمتع بفردية نادرة والى حد يحول دون تصنيف انتمائه الى أي عنصر او فصيلة! فعلى الرغم من ثرائه الفاحش، يكرس معظم وقته في دراسة البراري وطرق المحافظة عليها، وبالتالي اصبح خبيراً في هذا المضمار، الأمر الذي حدا «بمصلحة المتنزهات الوطنية» الى تعيينه مستشاراً لها. ان والدته، وهي سيدة جذابة من اصل

فرنسي كندي، طالما اسرت الي بمخاوفها من رحلاته الاستكشافية الطويلة في الغابات الشمالية حيث يعيش حياة خشنة، يأكل المعلبات ويعرض صحته لعوامل الطبيعة الشرسة.

ابتسمت تشاريتي وتابعت:

- وكثيراً ما اخبرتني انه على صلة ودية عميقة بالحيوانات والهنود الحمر اكثر مما هو على صلة بالمجتمع المتمدن. لكنها فخورة به جداً، وجميعنا في كندا نعتز بعائلة رامسي. في رأيي ان اجداد رولف ورجالاً على غراره هم الذين اوجدوا لنا ما نملك من تاريخ قصير. انتم لديكم ملوككم وزعماء عشائركم، ونحن الكنديين، لدينا آنغس رامسي واتباعه الرحالة!

لم يكن موعد الحفلة قد ازف، وامامها نصف ساعة من الانتظار. ولذا جلست كلير الى جانب ضيفتها وقد استسلمت لقضاء وقت مضجر. سألتها بتهذيب:

- رحالة؟ هذا التعبير لم اسمعه قبلاً.

فسارعت تشاريتي الى شرح ذلك باعتزاز ظاهر:

- انهم ابطال غابات كندا الشمالية الاسطوريون، يصطادون الحيوانات ويتاجرون بفرائها في ارجاء تلك الغابات الشاسعة. معظمهم لم يكن يهتم بتجارة الفراء بحد ذاتها، ولا طمح الى الاثراء او النجاح بل الى مواجهة تحديات البراري واخطارها المستمرة. كانوا يشقون طرقهم عبر الظلام والغابات المخيفة المكتظة بالحيوانات البرية، ويجازفون بحياتهم بالتجذيف القاسي في الأنهر القوية لمدة تتراوح بين خمس عشرة ساعة وثماني عشرة يومياً، لا يأكلون الا النزر اليسير، ويتوقفون لبضع لحظات في نهاية كل ساعة ليدخنوا غليوناً ثم يعودون الى التجذيف تحت الامطار المنهمرة او الشمس الحارقة او في الرياح الهوجاء.

حدقت تشاريتي الى البعيد وتابعت حديثها التاريخي:

- كانوا يضطرون عادة الى استكشاف البراري وشق طريقهم بأيديهم، لكن آنغس رامسي كان اذكى من سواه اذ وطد صداقته مع الهنود. ولقاء معاملته الأخوية لهم، اطلعوه على خبرات الصيادين القدامى الذين كانوا منذ وقت بعيد قد توصلوا الى ايجاد طرقهم الخاصة عبر الأنهر والغابات، ومعظم الدروب التي يسلكها الصيادون حالياً هي دروب مهدتها لهم اقدام

الهنود الحمر قبل قرون من وصول اول رجل ابيض الى كندا.

فعلقت كلير بانبهار:

- يا لتلك الحياة! ساعات طويلة من العمل الشاق، طعام قليل جداً ولا شيء بتاتاً من اسباب الراحة! لا بد انهم كانوا تعساء!

فهقهت تشاريتي بحبور وقالت:

- هذا الشيء الوحيد الذي ما كانوه ابداً! فسجلات التاريخ تقول ان هؤلاء الرحالة كانوا يبدأون مسيرهم قبل الفجر وهم يغنون وينشدون جماعياً، فتردد اصداء اصواتهم في الغابات المظلمة، ولا يتوقفون عن الغناء طوال النهار وحتى قسم من الليل.... اغنيات حزينة، مرحة، اخلاقية، وبعضها كان بذيئاً تماماً.

احست كلير بنوع من القرف. انها بصورة عامة تبتعد عن شوارع العاصمة في موسم السياحة الا انها، مرة او اثنتين، شاهدت شباناً متحمسين يجوبون الطرقات في ساعة متأخرة من الليل وهم يترنمون بأغنيات مبتذلة بأعلى اصواتهم، ويظهرون قلة ذوق اشعرتها بالاشمئزاز.

وعادت تسأل ضيفتها:

- ماذا عن المدعو آنغس رامسي الذي ذكرته، قريب صديقك الذي قدم هذا المساء، هل استقر في مونتريال بعد ان كوّن ثروته؟

ظهر الارتباك على تشاريتي وحاولت التهرب بقولها:

- ليس هو الذي استقر في مونتريال بل ابنه رولف.

احست كلير ان المرأة تخفي عنها شيئاً فتخلت عن قواعد التهذيب وسألتها بالحاح:

- لكن ماذا جرى لوالده؟

لم يكن هناك اقل احتمال لأن يسمعها احد، الا ان تشاريتي تلفتت حولها بقلق، قبل ان تعترف هامسة:

- قيل انه عاش مع الهنود حيث تزوج احدى نسائهم وانجبت له صبياً!

كان الرقص قد ابتدأ حين دخلوا قاعة الرقص الفسيحة. كانت جدرانها مزينة بأقواس من الشرائط الخاصة بكل العائلات الاسكتلندية المعروفة، وارضيتها مكتظة بنساء يرتدين اثواباً بيضاء متشحة بالتارتان وهن يراقصن رفاقهم المزهوين بتنانيرهم. كان هناك عازف كمان يقود الفرقة في معزوفة

حماسية، ويبدو من ضحكات الراقصين المبتدئين الذين تجرأوا على التقدم الى حلبة الرقص، انهم يستمتعون به بمقدار استمتاع الخبراء الذين يحثونهم على اتباع حركاتهم.

راح والدها، كمضيف، يعرف الزوجين ماكلاود الى جميع الحاضرين، فانسلت كلير بهدوء من القاعة وهي تأمل الا يفتقد احد غيابها حتى يحين موعد العشاء، ولن يأزف قبل ساعة على الأقل. اما جوناثان الذي انشغل كلياً بالاشراف على تنظيم الاحتفال، فقد اختفى في الكواليس ليتأكد من ان الأمور تسير على ما يرام، وهكذا استطاعت كلير ان تهرب الى الشرفة عبر الستائر المخملية الثقيلة، لتنفرد بنفسها بعض الوقت.

لم تدر سبب التوتر الشديد الذي تحسه، كما لو ان كل عصب في جسمها قد تقلص استعداداً لمواجهة تحد مجهول. لا ريب ان توتر جوناثان وثرثرة تشاريتي السخيفة قد خلخلا ميزانها، فهي تحب جريان الحياة في خطوط هادئة بلا مفاجآت، كما تحب الاختلاط بالناس العاديين لكونهم يعرفون الفارق بين ما هو مقبول ومرفوض من الأمور. اما الناس المتناقضو التصرفات والطباع فيفسدون الخطط المرسومة بدقة ويوجدون الفوضى والاضطراب. واوضاع كهذه لم يسمح والدها ابداً بان تحصل في بيته. لغاية الآن، لم تظهر اقل بادرة اضطراب في منوال حياتها المتوازي. اذن، لما تشعر بكل هذا التوتر، وتقفز مرتاعة لدى اقل حركة تسمعها؟

مشت الى حافة الشرفة واستندت بمرفقيها على حاجزها الحجري... حدقت بنظرات حالمة الى الغسق المظلم عند الخليج الذي تزينه اضواء ملونة، الى السفينة التجارية الراسية في المرفأ، والى سواري قوارب الصيد العالية وهي تتأرجح بلطف على الامواج. كم يختلف هذا المشهد عن غابات كندا الشمالية! قطبت بحيرة وتساءلت، لماذا قفزت فكرة كهذه الى ذهنها؟ وقررت بامتعاض ان حديث تشاريتي الخيالي هو الذي عكر مزاجها، اضافة الى المهمة الوشيكة التي ستضطرها الى التعامل مع رجل ادغال جاهل، قد يصل مرتدياً جلد ثور او طاقية من الريش!

- ان جزيرتكم غنية بجمال نادر!

مرت الكلمات عبر كتفها بتشدق مغنطيسي رقيق.

اجفلت واستدارت على عقبيها ثم تجمدت في وقفتها مشحونة بالتوتر.

شهقت تسأله:

- من ... من أنت؟

ما كان هناك موجب لسؤالها، اذ ادركت بطريقة ما من يكون...

فشعره الأسود الحالك، عيناه الداكنتان اللتان ضاقتا قليلاً حين جرفتا وجهها بسرعة البرق، بشرته المدبوغة كالجلد المشدود حول جانب وجهه المحدد القسمات كما لو انها نحتت بفأس... كلها غريبة عنها ولا تمت الى عالمها بصلة! ولا حتى بزته الرسمية المنسكبة بروعة على كتفيه العريضتين، وقامته النحيلة قدرت ان تذيب خوفها من الرجل المنحني عليها كالطود والمبتسم باسترخاء، انما تفوح من جسمه القوي المتين حيوية برية! لكن سنوات الانضباط الطويلة، مضافا اليها اعتداد ذاتي بسيط ورثته عن ابيها، هما وحدهما مكنتاها من القول بصوت لا مبال:

- حضرتك السيد رامسي، أليس كذلك؟ كنت اتوقع حضورك.

مدت له يداً ثابتة لتصافحه لكنها لم تحسب حساباً لما حدث بعد ذلك بسرعة فائقة. فحالما اطبق على يدها بيده السمراء النحيلة، جذبها بعنف الى صدره ثم احاط خصرها بقوة خانقاً فيها النفس. وخلال ذلك شعرت بشلل من جراء التيار المكهرب الذي كوى ذهنها ومفاصلها وجردها من التفكير والحركة، انما اشعل في اعصابها شرارة اخافتها... يا للعار الذي سيرافقها طوال حياتها، فهي لم تقاومه، ولم تصرخ، حتى عندما رفع رأسه واتاح لها ان تعب الهواء النقي بشهقات عميقة.

ماذا قالت له قبل لحظات؟... «وكنت اتوقع حضورك». تلك الكلمات الهادئة تبدو الآن بلا معنى، كذلك نظرته التي تلتهم وجهها وتتلكأ على اهدابها الذهبية المسدلة على خديها المتوردين، وتحوم على تاج شعرها المتوهج وفمها المرتجف، ثم تغوص اخيراً في عمق عينيها الرماديتين وكأنها الآن غيمتان من الخوف والحيرة.

وغمغم قائلاً:

- لا تنظري الي هكذا ايتها الحورية النرويجية! لم لا تصدقين مع نفسك وتقرين بأن للعواطف لغة خاصة بها؟ حين التقت عينانا، قرأت رسالتك واستجبت لها بصورة طبيعية.

شعرت بالخزي من تبريره. قفزت بعيداً عنه وهتفت بغضب عاصف

وهي تمسح شفتيها بيدها المرتجفة:

- هل تجرؤ على التلميح باني المسؤولة عن تصرفك الوحشي؟

ابتسم بهدوء اثار غضبها وقال يجيبها:

- اني اتفهم رد فعلك لكونك حصيلة مجتمع فائق التطور. فمن الحقائق الثابتة ان الحيوانات، بالرغم من عدم استطاعتها النطق، لا يصعب عليها ان تتناقل الانجذاب المتبادل بين بعضها البعض. البشر يملكون ايضاً هذه القدرة، لكنهم لسبب غامض، يفضلون التظاهر بالجهل ويثورون غضباً اذا اتهموا بالرياء. انا وانت شعرنا بانجذاب فوري الى بعضنا، لكن يخيل الي انك شديدة التمسك بالبروتوكول، وبالتالي، من شأنك ان تصري على مراعاة كل اللياقات قبل ان تسمحي لرغبتنا بأن تصل مرحلة التحقيق.

انتظر جوابها ثم فسر ذهولها الشديد على انه خجل. هز كتفيه وتأملها بامعان وما لبث ان هتف بصوت اجفلها:

- يا الهي! لكنك جميلة، بل انت جميلة جداً لتساومي ببضع تعهدات تافهة وبخاتم زواج متواضع. لكن اذا كان هذا هو المطلوب، فاعتبري المساومة ناجحة!

حين مد يده بكف مفتوحة وكأنه يتوقع منها ان تشارك في طقس بربري من طقوس الخطوبة، قررت كلير انها ما عادت تحتمل منه المزيد، وشهقت هائلة:

- انت مجنون! مجنون تماماً!

ثم استدارت على عقبيها وهربت منه. دخلت القاعة تبحث عن جوناثان الذي بدت مساوئه الآن تافهة بالمقارنة مع وقاحة ذلك الرجل، الذي يتحدر من جماعة من الرحالة البدائيين!

وجدت جوناثان يدور بعينيه على حلبة الرقص يبحث عنها، وهتف بحدة حين رآها:

- أين اختفيت؟ لقد تأخرنا كثيراً في دعوة الضيوف الى قاعة الطعام.

فأجابته بصدق وهي تأمل الا يخونها صوتها ويخرج مرتجاً:

- كنت اتحدث الى السيد رامسي، صديق الزوجين ماكلاود الذي وصل لتوه. احسب ان الترتيبات قد اجريت لانضمامه الى الحفلة.

ثم اندفعت تناشده بصوت لاهث:

- تعال ننسحب من هنا لننفرد معاً يا جوناثان، فمنذ وقت طويل لم يتح لنا ذلك. لكنه بدا غافلاً من سماع كلماتها الأخيرة المشوشة بل قبض على ذراعها وسألها باهتمام:

- اتقصدين ان رامسي وصل بالفعل الى الجزيرة؟

حيرتها النظرة المصدومة التي بدت في عينيه وردت متلعثمة:

- اجل، لكن لماذا تسأل؟ ما الخطب يا جوناثان؟ هل انت في ورطة؟

اعاده سؤالها بقوة الى رشده، فتقلصت على شفتيه ابتسامة جامدة وقال مراوغاً:

- هل اقترحت قبل قليل ان نتسلل من هنا؟ فكرة جيدة، تعالي ننفذها.

استدارا معاً ليهربا كفريسة من صياد، الا انهما وجدا غارف فوكسديل يسد منفذ خروجهما الوحيد ويقول:

- واخيراً استطعت ان تجدها!

حدج كلير بعبسة متجهمة وقادهما معاً الى الغرفة المخصصة لتقديم العشاء على طريقة البوفيه. قال لابنته بصرامة:

- لقد حدت عن قواعد الأدب حين تركت الجميع ينتظرون. هيا، اختارا بسرعة ما تريدان من الطعام ثم الحقا بي الى الطاولة المخصصة لنا ولجماعتنا.

امتثلا لطلبه بصمت واجم وبدون ان يتحمسا ولو قليلاً للموسيقى الصادحة ولضحكات الراقصين الهستيرية تقريباً وهم يحاولون ان يجيدوا تعلم الرقصة الجبلية المعقدة.

دارا حول الموائد المثقلة بأصناف متعددة من الطعام لترضي جميع الاذواق - سمك اسكتلندي محمر، قريدس مشكل، صدور عجل مشوية، افخاذ ضأن محشوة، ديك حبش مع الخوخ، بط مع برتقال المندرين، عصافير مقلية ومجموعة مذهلة من السلطة واخلاط المايونيز والخردل.

عزفت كلير عن كل هذه المشهيات واكتفت بشريحة لحم مشوية، وورقة خس، ومقدار ملعقة من سلطة البندورة. كانت تهم بالابتعاد عن المائدة حين سمعت صوتاً ليناً يقول لها ناصحاً:

- يجدر بالمضيفة ان تتظاهر بالشهية كي لا تفضح نهم ضيوفها الى

الطعام.

ثم سحب رولف رامسي الصحن من يدها، وأدار ظهرها لتواجه المائد
مجددا، وتابع يقول بنظرة خبيثة:

ـ هيا نحاول من جديد كي نشبع جوعنا معاً.

تجاهلت كلير تلميحه الوقح وتلفتت حولها تبحث بلهفة عن جوناثان فاذا به يبعد عنها خطوة. اندفعت اليه تتمسك به كدرع يحميها من نظر رولف المتحدية وابتسامته الساخرة، وقالت متعثرة:

ـ جـ... جوناثان. أنت لم تتعرف بعد الى السيد رامسي.

ثم ثبتت بصرها على صحنها واردفت:

ـ سيد رامسي، أقدم لك جوناثان هيوود، خطيبي.

لم تشدد كثيراً على الكلمة الاخيرة، الا انها انطلقت كسهم يصوب ال قلب ويستقر في منتصفه تماماً. احست رولف يجفل استغراباً واستطاعت ا تقارن بين تعبيره الذي تجلد فجأة وبين تعبيره الدافىء السابق. لكنه سرعا ما تماسك نفسه وقال بدماثة:

ـ يسرني التعرف اليك يا سيد هيوود.

احنى رأسه قليلاً لكن جوناثان لم يمد يده مصافحاً لكونه يحمل صحني بيديه، وتابع رولف يقول بخفة:

ـ نويت ان ازورك غداً في مكتبك كي نبحث عدة نقاط عمل ما تزا عالقة بيننا، لكن اذا كان هذا الموعد لا يناسبك، فلعلك تقترح موعد آخر؟

تبدل وجه جوناثان من الشحوب الشديد الى الاحمرار الناري وقا بسرعة:

ـ غداً يناسبني تماماً.

ـ عظيم! هل لنا ان ننضم الآن الى الآخرين؟

استطاعت كلير ان تشفي بعض غليلها من اللقاء، لكن سرورها ما لبث ان تبخر كلياً حين تمكن رولف رامسي من الجلوس على المقعد المجاو لها الى المائدة بالرغم من محاولاتها للحؤول دون ذلك. احست بعصبية من قربه، ومن عينيه الداكنتين اللتين عكفتا على مراسلة عينيها كلما حملها الغباء والاهمال على رفع بصرها الى ما فوق غمازة ذقنه العنيد والمتحدي.

لكن تشاريتي ساعدتها من حيث لا تدري، فانتشاؤها بنجاح الحفلة وفرحها بوصول رولف جعلاها تحتكر اهتمامه كلياً، وبدون ان تتيح له فرصاً سهلة كي يعذب الفتاة الشاحبة التي تجلس الى جواره بهدوء وكبرياء.

ولخشيتها من تصرف مغاير يعرضها للانتقاد فقد ارغمت نفسها على تناول طعامها القليل، وأصغت بانتباه الى الاحاديث الدائرة عبر الطاولة.

كانت العمة ايفي تثير موضوعها المفضل، منشأ الأسماء واشتقاقها، وسمعتها تقول:

ـ خذوا مثلاً اسم اخي غارف، فهو مشتق من الاسم الاسكندينافي غرافير واصله يعني «وادي الشلال».

وقال رولف رامسي:

ـ خذوا اسم كلير...

وهنا رفعت رأسها والتقى بصرها بنظرته الساخرة وهو يتابع:

ـ انه يعني في الفرنسية، «الصافي»... وكلير فوكسديل يعني المياه الجارية الصافية! هناك هنديات عديدات يحملن أسماء مشابهة، لأن من عادة الأم الهندية ان تسمي طفلها باسم اول شيء يلفت انتباهها بعد الولادة. هل تعرفين ذلك يا صغيرتي؟

بالنسبة الى الآخرين، لم يبد تعليقه محطاً للكرامة، الا انه طعن فيها عصباً خفياً، ولأول مرة في حياتها شعرت بغضب شرس من جوناثان لأنه اظهر مراعاة لهذا الدخيل كادت ان تصل درجة الخضوع... وشعرت بغضب من تشاريتي وعمتها ايفي لانهما تظهران اعجابهما بسخره وجاذبيته، ومن والدها الذي كان ينظر اليه باستحسان كبير، وهو في الواقع مجرد رجل ثري، يعتقد ان ثراءه يبتاع له كل شيء بما في ذلك هي. رجل يرتدي لباس تمدنه الرقيق كدهان شفاف تظهر من خلاله دلائل وحشيته، رجل استطاع بكلمات قليلة خفيفة ان يقلصها الى مستوى فتاة جاهلة أمية!

نهضت فجأة من مكانها وقد ظهرت كبرياؤها بوضوح على وجهها. حدجته بنظرة متعالية وقالت:

ـ كلا يا سيد رامسي، لم اكن اعرف ذلك، لكني تذكرت الآن ان اسمك نفسه يثبت صدق روايتك، فرولف اسم مشتق من كلمة قديمة كان الألمان يطلقونها على الذئب! ولقد سمعت الناس تقول، ان المرأة الحامل،

اذا تلقت صدمة مفاجئة فان طفلها يولد وهو يحمل علامة معينة او خاصية، ولذا يسهل علي الاعتقاد ان احدى نسائكم الحاملات قد تعرضت في وقت ما من تاريخكم الى تجربة مخيفة مع احد الذئاب!

٣ - مليونير ينتقم

اتاحت كلير لمهرتها بأن تختار وجهتها الخاصة على درب الجياد الشديدة الانحدار التي تؤدي الى حزام شجري، ومن ثم الى واد صغير مكسو بالخلنج. كان الوادي منعزلاً وصامتاً الا من نهر يتدفق مزبداً على الصخور التي هوت على مر الزمن من الجبال المحيطة بالوادي، وتسمع فيه ايضاً زعقات غربان تحذر اي طائر متطفل من مغبة الاقتراب من مواقع اعشاشها.

لقد اعتادت ان تهرب الى هذا الوادي الذي يشكل لها معتزلاً سرياً يزودها بالعزاء واسباب الراحة... سرير ناعم من السرخس تستلقي عليه لترخي مفاصلها المتقلصة ولتذرف دموعاً تغسل اشجانها، صمت فسيح تبثه مخاوفها بدون ان يسمعها احد، اغنية نهر طالما هدهتها وجعلتها تنام باسترخاء، ثم ستار الجبال الماردة التي تذكرها وحدانيتها الدائمة بأن مشاكل البشر ومخاوفهم ما هي الا امور عابرة.

ترجلت عن الفرس وتركتها تسعى الى ضفة النهر لتروي عطشها. طرحت نفسها على وسادة من السرخس وأسندت رأسها على ذراعها الممدودة وقد صممت على عدم البكاء... منذ اسبوع، ومن حين وصل رولف رامسي الى الجزيرة، ما عادت الحياة تطاق. لقد أدركت انها تستحق التأنيب على الاهانة التي قذفته بها ليلة الحفلة الراقصة، لكن بالرغم من اعتيادها على مزاج ابيها واطواره، الا انها لم تتوقع منه تلك الثورة الرهيبة، وحيث فح فيها انذاك كالثعبان:

- سوف تعتذرين لرامسي بكل تواضع، كما فعلت انا تماماً! كيف

جرؤت على اذلالي بهذا الشكل؟ منذ طفولتك وانا اعلمك وادربك كيما اذا حان الوقت لتملأي مكان أمك الشاغر وتقومي بدور المضيفة في بيتي، ان لا يكون هناك اي خطر من ان تجرحي موقفي بارتكابك زلة اجتماعية ما. . . وحتى هذا المساء بقيت اهنىء نفسي على ان الساعات الطويلة التي صرفتها في تدريبك قد اثمرت عن مسلك اجتماعي كامل! كامل!

لوح بذراعيه آنذاك ليعبر عن قرفه باسلوب اعنف، وتابع:

- الآن سيعرف اهل الجزيرة جميعاً ان ابنتي لا تقل سوء تربية عن فتيات الأزقة!

تململت كلير على وسادة السرخس لتهرب من ذكرى المجهود الذي بذلته لتحتفظ بصمودها البارد امام الانتقاد اللاذع ذاك. وحتى عمتها ايفي، اكثر الناس تفهماً، بدت منصدمة ومذهولة من تصرفها، وكذلك جوناثان ودنكان ماكلاود. اما تشاريتي فلم يظهر عليها أي استغراب، بل لاحت على محياها بهجة منتصرة، حيرت كلير الى ابعد الحدود. لكن بالرغم من ندمها على الحرج الذي احدثته لكل منهم، الا ان ردود فعلهم بدت لها بسيطة كعقص البعوض بالنسبة الى الموقف الذي اتخذه رولف، مع انه تحمل سلاطة لسانها بصدر رحب. هذا الموقف الذي جعلها تلجأ الى الوادي هرباً منه. . . فمنذ سبعة ايام مدمرة للاعصاب، وهو يرصد كل تحركاتها ويلحق بها الى كل حفل تحضره حيث يلتصق بها كشبح منتقم، ولا يأبه لزجرها او لتجاهلها، ويعمل على تهديم مسلكيتها المتماسكة بنظرات جريئة ثاقبة وهمسات غزل وقحة كانت تشعل وجنتيها بنار الخجل.

استلقت على بطنها لتدفن وجهها في السرخس الرطب وتأوهت قائلة:

- ان كان يصر على التصرف كوعل هائج، فلماذا اختارني انا بالذات لأكون عشيرته؟

- أتسمحين لي بالانضمام اليك يا عزيزتي؟

جمدت فجأة كما التمثال! هناك رجل واحد فقط من بين معارفها يمتلك هذه الجرأة الوقحة على اقتحام عزلتها، رجل واحد فقط يزين عباراته لها بكلمات تحبب تعلمها وهو طفل من أمه الكندية - الفرنسية!

عادت تستلقي على ظهرها، وقالت وهي تحدق بكراهية الى وجهه

الضاحك بسخرية:

- انك تتقدم بصمت كثعبان يزحف بين العشب. لا ريب انك تعلمت هذا الفن من اخوتك الهنود؟

تألقت اسنانه الناصعة وسط بشرته السمراء ثم خفض جسمه وتمدد برشاقة الى جانبها. تجاهل تعليقها اللاذع، وارتكز على احد مرفقيه، مقرباً وجهه منها الى حد اشعرها بالاختناق من خطره المهيمن. سألته بحنق:

- لماذا لحقت بي؟ الهذه الدرجة انت عديم الاحساس ولا تحترم رغبة المرء في الانفراد بنفسه؟

اجابها برقة هازئة:

- هل جئت لكي تختبئي في شرنقتك؟ انت تسعين الى الانفراد لأنك تخافين الحياة. او بالأحرى تخافين لمحة الحياة الجديدة التي اريتك اياها. فلغاية اليوم انت لا تمارسين الحياة بل تعيشينها فقط، كتمثال لغادة جميلة تنتظر من يبعث الحياة فيها، تنتظر عواطف رجل مشبوبة تبعث الدم حاراً في عروقها المتحجرة. لكن استشعار العواطف العميقة يتطلب استعداداً لاستشعار الألم، وهذا ما تهربين منه يا صغيرتي الجبانة، تهربين من ألم النشوة الذي يهدد بالبهجة المتناهية!

مد بنصره الأسمر ليداعب خصلة شاردة من شعرها، واردف:

- اعتقد ان الحنان الوحيد الذي عرفته هو الشعور الفاتر الذي تتبادلينه مع جوناثان، هذا الرجل المجرد من الروح كقط مخنث! زواجك منه سينتج عن مأساة اذ ستعيشين حياتك معه، وفي النهاية سوف تعادين الى خالقك كرزمة صغيرة محزنة مكتوباً عليها: «معادة الى مرسلها بدون ان تمس».

ابتعدت بجفلة تلقائية عن صراحته الوحشية التي لا يمكن ان يتقبلها اي مجتمع متمدن، وقد كرهته اكثر من اي وقت مضى لكونه لم يتورع عن تعريتها من الاحتشام وعن انتهاك احلامها الرقيقة بزواج سعيد حلو العشرة، وذلك باقحامه الفظ لموضوع الحب الذي ما فكرت فيه الا في مناسبات قليلة ظهر فيها جوناثان كزوج لطيف، يتقرب منها متودداً ويقودها الى استسلام خجول.

ردت عليه بصوت مختنق لفرط حنقها:

- كيف تجرؤ على اسماعي محاضرة عن الحب في حين انك لا تفهم منه

شيئاً! هدفك الرئيسي في الحياة هو اشباع احتياجاتك الانانية. ولذا لن اضيع وقتي في محاولة الشرح بأن الأخذ والعطاء يشكلان عامل التوازن الزواجي وان تقبل الزوجين للفوارق بينهما هو عنصر جوهري في بناء العلاقة المتينة.

ارغمها على مواجهته والنظر في عينيه، وقال:

ـ لكن الفوارق بينك وبين جوناثان واسعة جداً ومتنوعة جداً، يا عزيزتي. واذا كنت ترفضين التفكير في مصلحتك ففكري في مصلحته هو، لأن المرأة غير المكتفية لا يمكنها ابداً ان تسعد زوجها. ان طبيعتك الحساسة المعقدة تحتاج الى رجل عميق البصيرة يسبر غورها.

فاغتصبت ضحكة مستهجنة وردت:

ـ وهل ترى نفسك تقوم بهذا الدور؟ ان غرورك الكبير لا يعادله الا انعدام احساسك الفظ!

وهنا قفز قلبها حين فوجئت بشرارة خطرة تندلع في عمق عينيه. ثم احنى رأسه حتى لفحت انفاسه خدها، وقال:

ـ هل يجب ان اثبت لك مبلغ فهمي لطبيعتك؟ هل يجب ان ابين لك بأية سهولة تنبض عروقك اذا ما لمستك بيدي، وبأية سهولة يتحول لون عينيك الى بحر رمادي بلا قرار، وحيث يقدر الرجل ان يقاوم مد التعقل ثم يغرق في تيار العاطفة المشتعلة؟ ما بك ترتجفين يا ملاكي؟

حطت نظرته على جانب فمها كفراشة ناعمة، وتابع:

ـ ترتجفين وبالكاد لمستك؟ انكري، ان استطعت يا حاملة السيف الجميلة، انك على استعداد تام في هذه اللحظة، للاستسلام لنداء الحب.

فقالت وهي تشدد على كلماتها:

ـ اني اؤكد بثقة ان هذه الرغبة ابعد ما تكون عن ذهني. بل على العكس، اتمنى لو اني اعيش بالفعل في عصر الاساطير الاسكندينافية، وانني احدى صبايا مثوى الشهداء، لأن لا شيء سيسرني في هذه اللحظة كسروري بأن اصوب رأس سيف الى عنقك!

استشعر جديتها وصدق كلامها. اكتسب وجهه جدية مماثلة الا انه اجابها بنبرة مرحة:

ـ أتراك نسيت يا جيلتي، ان الصبايا اللواتي كن يهرعن الى قلب المعركة

ليخترن ابطال القتال، كن يفعلن ذلك بدافع الرغبة وليس بدافع الانتقام؟ كنت سأعتز جداً باختيارك لي بطلاً، واستمتع بتلبيتك لكل رغباتي الى ما لا نهاية.

قفزت كلير واقفة على قدميها وهي ترتجف من الحيرة ومن رغبة في البكاء. قلصت قبضتيها وقالت تطرده باستعلاء كما يفعل ابوها في مواقف كهذه ويحصد افضل النتائج:

ـ لماذا لا تعود الى وطنك يا رولف رامسي؟ هيا، عد الى غاباتك، الى دببك الرمادية والى اصدقائك السذج الذين يستحسنون دعاباتك السخيفة.

ثم شمخت بأنفها واردفت بتحد:

ـ نحن المانكسيين، ولكوننا اصحاب حضارة فائقة التطور، لا نصادق الا من يتحلى بالحساسية والدبلوماسية والتفهم، ولذا لا يمكنك ابداً ان تندمج في مجتمعنا. من المؤسف ان عائلتك، حين هاجرت من هذه الشواطىء، لم يكن لديها العزم على التزام الاخلاقية التي نشأت عليها، كي تستطيع ان تكون قدوة لسكان مهجركم السيئي الحظ. ان خلقيتك وتصرفاتك تثبتان انكم فعلتم العكس تماماً، ان عائلة رامسي اختارت الاندماج مع الهنود الحمر!

كان قد نهض من مكانه واتخذ وقفة الرجل الهندي الكلاسيكية... ساقان منفرجتان، ذراعان معقودتان على الصدر ووجه جامد التعبير.

كتمت كلير رجفة ذعر، وتساءلت عن نوع الانتقام الذي سيلحقه بها، لكنها سرعان ما اندهشت من ابتسامته العريضة التي اعقبها بضحكة عالية وهتاف:

ـ يا لك من متكبرة متعجرفة!

وحين سقطت يداه على كتفيها انكمشت داخلياً لكنها استطاعت ان تحتفظ بنظرتها المتحدية لعقابه المحتمل. وكان جوابه حاداً، قاطعاً وواضحاً جداً:

ـ عندما اغادر هذه الجزيرة يا صغيرتي، بعد فترة من الزمن، سوف ترحلين معي... كزوجة!

لا تحاربي القدر يا كلير.

هزها قليلاً متجاهلاً شهقتها الثائرة، واردف:

- انا اريدك، وانا احصل دائماً على ما اريد. انك مهما استعملت من اساليب حربية ذكية، فلن تستطيعي التغلب على صياد خبير، يدرس عادات فريسته وطبيعتها عن قرب شديد والى حد يعرف معه بالضبط كيف سيكون رد فعلها، حتى قبل ان تقع في المصيدة!

غادرت الوادي تسوق فرسها بجنون لتهرب من الرجل الذي راقب رحيلها بلا حراك، الرجل المفعم بثقة مخيفة، والذي يبدو عازماً على قلب ميزان حياتها الهادئة الرتيبة. وقالت تعزي نفسها وهي تحث فرسها على الاسراع لتصل بيتها الآمن:

- لكنه لن يستطيع ذلك! ان ثراءه يفسد اخلاقه وحبه للسلطة يدير راسه! لكنه لا يستطيع ان يفرض علي ارادته بأية طريقة!

رأت سيارتين متوقفتين في الممر لدى اقترابها من البيت. سيارة جوناثان، وسيارة عمتها. اجتازتها في طريقها الى الاسطبل حيث تمهلت في انزال السرج عن الفرس وفي تمشيطها بالفرشاة، ثم تركتها في مربطها وامامها كيس مليء بالشوفان قبل ان تأخذ طريقها الى البيت.

استغربت ان تجد عمتها تجلس بمفردها تحتسي القهوة على الشرفة المشمسة. رفعت رأسها لدى اقتراب كلير التي لاحظت ابتسامتها المغتصبة وجبينها المغضن بالقلق. سألتها وهي تجلس على الكرسي المجاور:

- اين جوناثان؟ رأيت سيارته في الممر.

همت عمتها بالكلام ثم ترددت حين تناهت اليها اصوات عالية تنبعث من النافذة المفتوحة في غرفة مكتب ابيها. كانت الكلمات مشوشة لكن الغضب واضح فيها. فعادت كلير تسأل انما بحدة:

- ما القضية؟ لا اصدق ان ابي وجوناثان يتشاجران؟

اجل، لا تصدق، فهي لم تر جوناثان ابداً يهدر طاقته في اي نقاش، كما ليس من طبيعة والدها ان يتخلى عن كرامته الى درجة رفع صوته في وجه اي انسان.

هزت عمتها رأسها وقالت وهي تعيد فنجانها بعناية الى الصحن:

- لا بد انهما يتشاجران. منذ نصف ساعة وهما على هذه الحال وليتهما يتوقفان.

- ولكن ما السبب؟ ماذا حدث على حين غرة؟

شهقت كلير اذ انتابها حدس قوي بحصول مصيبة. قفزت مرتعدة حين صفق الباب بعنف مما جعل الصوت يتردد في ارجاء البيت. ثم سمعت خطوات والدها تقطع البهو بسرعة، فركضت الى داخل البيت ورأت ظهره المستقيم يختفي من على قرص الدرج ليدخل غرفة نومه.

استدارت تركض الى غرفة المكتب فوجدت جوناثان يجلس متهدلاً على مقعده وهو يسند رأسه المحني بين يديه المرتجفتين. طغت عليها موجة من العطف الأمومي فركضت تركع عند قدميه وتواسيه قائلة:

- عزيزي جوناثان، لا تتضايق من ابي الى هذا الحد. اعرف ان غضبه قد يكون رهيباً انما لا يجدر بك ان تنهزم امامه وتتيح له المجال لكي يشعر بهزيمتك.

وتابعت بصوت غاضب محتد:

- من طبيعته ان يخلق مشكلة كبيرة من اختلاف بسيط في الرأي. هذا ما حدث، أليس كذلك؟ مجرد زوبعة في فنجان؟

صدمت حين رفع جوناثان رأسه ورأت اليأس يهدل تقاسيم وجهه، لم يقدر ان يواجه نظرتها وخفض بصره الى الأرض. وبعد صمت طويل تصارع فيه مع نفسه، استطاع ان يهمس قائلاً:

- ليتها كانت حادثة بسيطة يا كلير، بل هي مصيبة كبرى! فوالدك يزعم اني جلبت العار والخراب لنفسي ولعائلتي، وجلبتهما له ايضاً بسبب خطوبتنا.

اطلق ضحكة جافة واردف:

- قصدته لأطلب منه النصيحة والعطف فاذا بي اكتشف ان والدك رجل قاس ضيق الصدر. واذا بلغت الأمور اقصى درجات السوء وقدمت للمحاكمة، فاني اضرع الى ربي ان لا يكون هو القاضي!

كان خائر العزيمة وغارقاً في التعاسة الى درجة ادركت معها ان عليها ان تستعمل الحزم لتفهم منه الحقيقة.

نهضت واقفة واهابت به قائلة:

- انهض يا جوناثان! كف عن الرثاء لنفسك وخبرني بوضوح وبساطة عما حصل.

حسبها تتعالى عليه وتزدريه فنظر اليها منكسر الخاطر. ثم تنفست الصعداء حين وقف منتصب القامة، وقال موجهاً الكلام الى بقعة في السقف:

- لقد منيت بحظ سيء وخسرت مبلغاً كبيراً من المال، وبعضه ليس من مالي الخاص.

كان بوسعها ان تعنفه، كما فعلت مرتين من قبل، على ضعفه لكنها لم تجد الوقت مناسباً للتأنيب. وبدأت تسأله:

- كيف...

فقاطعها بسرعة:

- استدنت ذلك المبلغ من احد الزبائن.

اجابته بحيرة:

- اذن ما عليك الا ان تدفعه له.

- لقد استدنته من ريع املاكه بدون علمه.

- اختلسته!

فصرخ:

- كلا!

ثم خفض بصره من على السقف وقال حادجاً اياها بغضب:

- افكارك تدور في فلك افكار ابيك! انا لم اختلس المال بل اقترضته فقط ونويت ان اعيده حال حصولي على مبلغ نقدي، لكن ذلك الزبون جاء الجزيرة فجأة وزارني في مكتبي مطالباً بالاطلاع على دفاتر الحسابات قبل ان اتمكن من تسديد المبلغ وتصحيح الموازنة.

وحتى قبل ان تطرح سؤالها ادركت بيقين ثلجي فحوى جوابه:

- ما... ما اسم ذلك الزبون؟

شعرت باصابع جليدية تعصر قلبها قبل ان يقول بمرارة:

- رولف رامسي. رجل يقال انه يملك عدة ملايين من الدولارات، بوسعه ان يبتاع المزرعة المتداعية التي لا تفيده بشيء، وان يملأها بتحف نادرة ويدفع اجراً مرتفعاً لناظر بالكاد يفعل شيئاً، الا ان هذا الرجل ينوي رفع امري الى القضاء وهدم مستقبلي ومهنتي وسمعتي.

تفحص وجهها بلهفة واردف:

- وقد يهدم زواجي ايضاً من اجل مبلغ زهيد لا يساوي شيئاً بالنسبة الى ثروته!

٤ - الفريسة والصياد

- أبي، ألا يمكنك ان تقرض جوناثان المال الذي استدانه؟

فصحح ابوها كلامها بدون ان يرفع رأسه عن الصحيفة:

- الذي سرقه!

كانت كلير قد تمهلت في مفاتحة والدها بالموضوع، وهذه الليلة هيأت له عشاء شهياً وانتظرت حتى استقر على مقعده المفضل وبدأ يرشف القهوة. في هذه الأوقات الهادئة بعد العشاء يكون عادة في احسن حالاته، لكنها حالما ذكرت اسم جوناثان تقلص فمه المسترخي وبدا كخط واجم يرفض الكلام.

فقالت تؤنبه بلطف:

- ألا تظن انك تتصرف بعناد شديد؟ في أي حال، اذا كنت مصمماً على النظر الى زلته بهذه الطريقة، فذلك لا يغير حقيقة انه سيصبح صهرك عما قريب، وان لفتة عطف من جانبك كفيلة بأن تجنبنا فضيحة كبيرة.

داعبها الأمل حين انزل الجريدة الى ركبته ليعطيها كامل انتباهه. ابتلعت ريقها بصعوبة وقد عزمت على ان لا تدع نظرته الباردة تفقدها رباطة جأشها. ثم صرخ فجأة بصوت مرعب:

- لا اصدق ما سمعته اذناي! هل تعتقدين حقاً اني سأرضى باتخاذ هذا المختلس صهراً لي؟ هل فقدت كل ما لديك من كرامة حتى تفكري بالزواج من رجل على شاكلته؟

قالت تدافع عنه في حرارة:

- تتحدث عنه وكأنه مجرم. انك تتحامل عليه يا ابي ولا ترضى بمطلق

تبرير لتصرفاته... لقد حاكمته وحكمت عليه من الآن!

كان غراف فوكسديل يمارس سلطة رهيبة عندما يعارض احد احكامه، ولذا نهض واقفاً وقد استبد به الغضب لأن ابنته المطيعة عادة، تجرأت الآن وانتقدت تقصيره في واجباته. تمالك غضبه بصعوبة وخاطبها بصوت مرتجف:

- تجرؤين على اتهامي بالتحامل وبجهلي لكل ملابسات القضية، في حين راعيت ضميري وانتهجت عادتي المتبعة في مقارنة كل الأدلة الموجودة وغربلتها وتفحصتها، وفي النتيجة ذهلت من بشاعة الحقائق التي توصلت اليها! هناك نقطة واحدة اقر باني اخطأت الحكم عليها، وهي اني اخطأت خطأً فادحاً وكاملاً في تقييمي لأخلاقية جوناثان هيوود!

لم تصدق، وبدا لها جوناثان كانسان شهيد يجلد بالسياط من اجل كرامة والدها الجريحة، فقالت بعناد:

- ايستأهل كل ذلك لمجرد انه استدان مبلغاً زهيداً من المال؟

- بل لأني اكتشفت انه يفضل المقامرة على العمل، ونتيجة لذلك اصبحت شركته على شفا الافلاس، تلك الشركة القديمة العهد والرفيعة السمعة! اما بالنسبة الى المبلغ الزهيد الذي تتحدثين عنه، فان مبلغ خمسة آلاف جنيه لا يعتبر زهيداً في نظر سائر الناس!

اتسعت عيناها بخيبة وقالت متعثرة:

- خمسة... آلا... هل قلت خمسة آلاف؟

لكن والدها لم يجبها لأنه كان غادر الغرفة ثائراً.

بعد ساعة مشحونة بالتساؤلات المذهولة، توصلت كلير الى قرار مؤلم. ان زلة جوناثان واضحة كعين الشمس لكن العقاب الذي يتربص به، تعود معظم مسؤوليته الى تورطها الشخصي. فلو انه كان مجرد صديق عادي لكان ابوها اعتبر زلته مجرد هفوة تعود الى طيش الشباب، ولو ان رولف وامسي لم ير فيه عقبة تمنعه من امتلاكها هي، لما اصر على مقاضاته في المحاكم. كلاهما عازم على تحطيمه، وكلاهما لديه مصلحة قوية مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً. وتردد صدى كلمات رولف في اذنيها «وانا اريدك، وانا احصل دائماً على ما اريد».

صعدت الى غرفة نومها لتتفحص مجموعة ثيابها، ولتختار ثوباً جذاباً

تلبيه. انها تزدري نفسها لهذا التصرف، لكنه كفيل بانجاح مهمتها، فرولف رامسي يحب الجمال، وطالما لحظته ينظر باعجاب الى قوام فاتن او كاحلين رشيقين او مشية مغرية. كذلك صارحها عدة مرات بانه يعتبرها اجمل الجميلات... ضعفه هذا سيصبح قوتها، وهي تنوي استخدام هذه القوة بالنيابة عن جوناثان المسكين.

بعد ساعة، وحين وصلت فندقه وطلبت ان تؤخذ الى جناحه الخاص، كانت واثقة من انها تبدو في اجمل حالاتها. فثوبها الحريري الاخضر بلون اوراق الشجر، تعمدت ارتداءه على امل ان تلين مشاعر رولف اذا ما ذكره لونه بالبيئة المفضلة لديه... الغابات الرطبة الخضراء حيث ينسم الهواء بلطف بين اوراق الشجر. صندلاها باشرطتها الجلدية الرفيعة وكعبيها العاليين اختارتهما لتضمن اعجابه بقدميها الصغيرتين وكاحليها النحيلين. ثم هناك ضربتها المبدعة الاخيرة بالنسبة الى تسريحة شعرها، اذ فردته ثم ضفرته في جديلة واحدة القتها بعفوية على كتفها، بالطريقة المفضلة لدى المنديات الجميلات.

انتظرت بعصبية حتى اعلن المرافق اسمها ثم دخلت بكبرياء هادئة الى غرفة الجلوس في جناحه. كان يجلس الى مكتب يتفحص بعض الأوراق. شعره مبعثر وقميصه مفتوح الصدر، وهذا دليل على انه لم يكن يتوقع زواراً.

لكن لم يبد عليه الاستغراب حين نهض ليرحب بها هاتفاً بالفرنسية:

- يا للجمال الملائكي!

خفق قلبها بانتصار، فهو يميل الى التحدث بلغته الأم كلما تحركت عواطفه في العمق، وتابع يقول:

- انت جميلة الى حد يجعلني اخشى الانفراد بك.

وحين اقترب منها برشاقة ماكرة الى حد ما، تبخر انتصارها وحل مكانه ذعر. لقد تأخرت في ادراك الخطر الكامن في تحدي الوحش داخل عرينه، في وضع نفسها تحت رحمة عينيه الثاقبتين المرسلتين اشارات لم تجرؤ على تفسيرها، والمسمرتين اياها في تحديق مركز طويل اشعرها بانها متورطة في حميمية عميقة جداً. توردت بالرغم منها، واحست انها شفافة كالزجاج حين اطلق ضحكة خشنة من عمق حلقه.

اخذته الشفقة عليها، فقادها من يدها صوب الاريكة وقال:

- اجلسي وحدثيني عن غايتك من هذه الزيارة الرائعة والمفاجئة.

عزت نفسها بأن مزاجه رائق على الأقل كما رغبت. جلست تعقد يديها على حضنها وحاولت جاهدة ان تقول ببرود معقول:

- جئت بدون علم خطيبي، لأناشدك الرحمة يا سيد رامسي.

احست بالفخر من نبرة صوتها المتزنة، لكنها سرعان ما فقدت رباطة جأشها حين لوح بيده متضايقاً وقاطعها بقوله:

- كفي عن مخاطبتي بالسيد رامسي، سارفض الاصغاء الى أية كلمة الا اذا ناديتني رولف.

ارخت ستارة اهدابها الكثة لتخفي امتعاضها منه وقالت:

- حسن جداً... يا رولف.

- عظيم!

مدد ذراعه على ظهر الاريكة دون ان يلمسها، بيد انها تقلصت غريزياً وقد شعرت بنفسها تتأرجح على حافة مصيدة مفتوحة. قالت تتوسل اليه بعصبية:

- ارجوك ان تأخذ كلامي على محمل الجد يا سيد... رولف. لقد جئتك بعد تفكير طويل عميق، لأطلب اليك ان تتغاضى عن... هفوة جوناثان. اعدك ببذل كل الجهود الممكنة لاعادة المال الذي اقترضه منك. انه نادم اشد الندم ومصمم على عدم الانجراف الى حماقة كهذه في المستقبل. اذن لا احسبك ستفرح كثيراً اذا الححت للفضيحة بأن تنفجر.

وهنا اكملت بصوت هامس:

- ثق اني عازمة على الزواج من جوناثان، سواء هدمت حياته ام انقذته.

فقال بحدة:

- لا تشوهي ضميرك الحساس بظنك انك قد استطعت التأثير على قراري برفع امر هيوود الى القضاء. لا، انت لم تؤثري علي بأي شكل.

رمشت عينيها باستغراب، اذ صعب عليها ان تعادل بين تصرفه الهادىء السابق وصوته المداعب، وبين هذا الصوت الذي خرج مفعماً بمقصد خبيث. نظرت بحدقتين متسعتين الى جانب وجهه الذي بدا منحوتاً من حجر، الى عينيه الصلبتين كالصوان وشفتيه القاسيتين كالفولاذ. قال لها

شارحاً عبارته الاخيرة:

ـ انا وانت لدينا عقيدة مشتركة يا كلير وهي ان الميزات والطباع تتناقلها العائلات جيلاً بعد جيل. ان اول رجل من عائلة رامسي هاجر من هذه الجزيرة، فعل ذلك وهو مسحوق الكرامة، خالي الجيوب وعلى كتفيه عبء فضيحة كان من شأنها ان تحطم معنويات رجال عديدين اقل منه شأناً، وكل ذلك بسبب تعامله مع محام معين... الجد الأكبر لجوناثان هيوود الذي اسس شركة العائلة والذي كان يخفي تعاملاته الخسيسة خلف ستار من النزاهة والوقار. وهكذا استطاع بمساعدة بعض اصدقائه النافذين ان يصم آنغس رامسي بوصمة الافلاس والكذب! ان الاحتفاظ بالضغينة يشكل هدفاً في الحياة، وانا ورثت حقد آنغس رامسي، بالاضافة الى عزيمة على الانتقام له.

كانت كلير تحدق فيه بذهول، وهي تتساءل كيف استطاعت ان تنخدع بابتسامته السريعة، بتشدقه الكسول وبقدرته التمثيلية على اخفاء دخيلته.

همست باستغراب:

ـ انا لا افهم كيف استطعت الاطلاع على تصرفات جوناثان بالرغم من وجودك في كندا التي تبعد عنا آلاف الأميال؟

اجابها بوجوم:

ـ معك حق، لم يكن بوسعي ان افعل ذلك، الا انني تبعت حدساً معيناً وقد صدق حدسي! اخترت جوناثان هيوود دون سائر المحامين واوكلت اليه مهمة شراء المزرعة بالاضافة الى كمية كبيرة من المعدات، بعدما وضعت تحت تصرفه مبلغاً غير محدد ورحت انتظر ما سوف يحدث.

وهنا ارتجفت كلير من ابتسامته القاسية حيث بدا تقريباً كحيوان يكشف عن انيابه وتابع يقول:

ـ لم يخيب جوناثان ظني فيه، فحين القيت له الحبل على غاربه سارع الى شنق نفسه به.

احست كلير بقرف عميق من تلك الطريقة الباردة المدروسة التي استغل بها ضعف جوناثان! كم كانت غبية حين توقعت الرحمة من سليل صيادين قساة، يجد لذة في تحدي عناصر الطبيعة الشرسة ويكرس ذكاءه وحواسه للايقاع بحيوانات الغاب المسكينة، والذي افتخر لتوه بالسيطرة على اناس

اضعف منه! هتفت بصوت اجش:

ـ انني احتقرك! لا اعتقد ان فيك ذرة من العطف او من الأحاسيس النبيلة!

هوت ذراعه كالسوط لتعتقل خصرها النحيل. رفعت رأسها على الفور وحدجته بنظرة عاصفة لكن كلمات التحقير ماتت على شفتيها حين رأت، للمرة الثانية، التحول الذي طرأ على وجهه، اذ عادت الى شفتيه تلك الابتسامة الكسولة، وعاد الى عينيه ذلك البريق الذي صارت تعرفه جيداً.

قال بهدوء هازىء:

ـ لدي احاسيس خاصة تجاهك يا عزيزتي كلير، او بالاحرى ايتها المياه الجارية الصافية. لكني اشك في انك تعتبرينها مشاعر نبيلة.

رفع جديلة شعرها الثقيلة ولفها حول عنقه ثم جذبها اليه وقال بخشونة:

ـ هناك طريقة واحدة يمكنك ان تنقذي بها قطك المسكين من الغرق. تزوجيني يا كلير، واعدك، اذا فعلت، ان امحو اسم جوناثان هيوود من ذاكرتي وذاكرتك معاً.

هتفت باختناق:

ـ مستحيل! هذه طريقة ابتزازية وانا ارفضها جملة وتفصيلاً!

ابعدها عنه بسرعة وقبل ان تجد وقتاً لتتنفس الصعداء، ولم تشعر الا وهو يقف في منتصف الغرفة ويقول لها عبر كتفه:

ـ سأعطيك مهلة قصيرة للتفكير. الليلة سأتناول العشاء في بيت قريب من بيتكم وسأمر عليكم في طريقي لآخذ جوابك النهائي!

انها لا تحتاج الى التفكير في عرضه الوقح، قالت كلير لنفسها مئات المرات وهي تعود الى بيتها وتهرول الى غرفة نومها، وهناك طرحت جسمها على احد المقاعد وجلست لساعات تركز بصرها معظم الوقت على عقربي الساعة وهما يتقدمان كالقدر المحتوم ويقربان وصول رولف رامسي.

لو ان هناك شخصاً يمكنني بحث الموضوع معه والاستعانة برأيه...

قالت في نفسها متضايقة وهي تستعرض في ذهنها معارفها القلائل. عمتها ايفي ترهب اخاها كثيراً والى حد لا يمكنها من معارضته والوقوف ضده. اما تشارلي ماكلاود، فكم ترحب برأيها الصادق الصريح، الا ان وقوفها

التام الى جانب رولف رامسي وغيرتها على مصالحه، سيجعلانها ولا شك تهنىء كلير على حظها الرائع لكونه اعجب بها وعرض عليها الزواج!

تنهدت الفتاة من عمق قلبها الحزين الحائر. ان تربيتها المنعزلة حرمتها من اتخاذ صديقة مخلصة في سنوات مراهقتها. لقد تعلمت ان تتقبل وتعيش مع معرفتها بانها لن تتوصل ابداً الى متعة المشاركة... مشاركة المباهج والآمال والمخاوف مع شخص آخر، وبالتالي بنت حول نفسيتها الحساسة قوقعة من العزلة، تستطيع الاحتماء بها لتتغلب على ألم الوحدانية ولكي لا يفطن الناس الى ان هذه الوحدانية المفرطة قد اوجدت فيها خجلاً يشل نفسيتها، بالرغم من مظهرها المتماسك الواثق ورباطة جأشها الخارجية.

ارتاحت لما حان موعد العشاء واضطرت الى تبديل ثيابها استعداداً له. وبطريقة آلية، استحمت وعقصت شعرها فوق رأسها في تسريحتها الانيقة المعتادة، ثم اختارت فستاناً بسيطاً للغاية ذا لون داكن يحاكي مزاجها الأسود. وفيما هي تهبط الدرج بشرود وضيق ارتفعت معنوياتها فجأة اذ سمعت محرك سيارة تتوقف امام البيت. داخلها شعور بأن الزائر قد يكون جوناثان فهرعت لتفتح الباب، ثم ما لبثت ان تراجعت بخيبة حين اجتازها جوناثان وعبر البهو بدون ان يحييها بكلمة واحدة.

بدا وجهه شاحباً كما لو ان شبحاً يتقمص جلده وقال بصوت كنقيق الضفادع:

ـ الوضع يزداد سوءاً وخطورة يا كلير!

كان فمه يرتعش وتقاسيمه تشوهها اختلاجة عصبية فيما عيناه الزرقاوان الباهتتان والصافيتان بصورة عامة، تتملكهما نظرة ذعر جامدة براقة.

مدت له كلير يدها وقالت تحثه بهدوء:

ـ تعال الى غرفة المكتب. والدي مرتبط بموعد عشاء ولن يرجع قبل ساعات.

تعلق بيدها كما لو انه طفل تنتشله من ورطة فيستمد من قوتها قوة جديدة يحتاجها. اجلسته بلطف على الاريكة وتركته قليلاً لتأتيه بفنجان من القهوة، ثم عادت لتضعه بين يديه المرتجفتين وقالت برقة:

ـ اشربه يا جوناثان ليساعدك على ضبط اعصابك.

اصطكت اسنانه على حافة الفنجان حين بدأ يرشف القهوة، لكن بعد

ان شربها كلها احس ببعض الانتعاش واستعادت شفتاه شيئاً من تماسكهما.

احست كلير شفقة كبيرة تغمر قلبها وهي تجلس الى جواره وتعتقل يديه في قبضة مواسية. ثم قالت بنبرة رقيقة وكأنها تسأله عن أمر عادي:

ـ والآن، خبرني ما القصة؟

رمقها بنظرة امتنان عميقة ذكرتها للحظة بنظرة كلب مخلص وقال بصوت اجش:

ـ انت فتاة عظيمة يا كلير وانا اكثر الشبان حظاً على وجه الارض لعثوري على انسانة مثلك، مخلصة وقوية الشخصية تهرع الى مساندتي في اوقات المحن.

اكتسب صوته رنة هستيرية عالية وهو يردف:

ـ اني احتاجك يا كلير. عديني بأن لا تخذليني ابداً!

ظلت لخمس عشرة دقيقة تحدثه بهدوء وتشد ازره بعبارات مشجعة مطمئنة حتى استطاع في النهاية ان يروي لها الحكاية بكلمات مفهومة الى حد ما:

ـ هذا الصباح جاء الى مكتبي اثنان من رجال المباحث حيث استجوباني وطرحا علي مئات الاسئلة. بالطبع فعلا ذلك بتهذيب، انما بالحاح شديد جعلني ادرك المصير البشع الذي ينتظرني! لم اتصور ابداً ان الأمر سيصل بي الى هذا الدرك!

وهنا تملكها الهلع اذ راح ينتحب بعجز هادىء اظهر عمق اليأس الذي يتخبط فيه.

اردف يقول مرتجفاً:

ـ كنت واثقاً من الحصول على مساعدة كفيلة بان تدرأ عني المصيبة، لكن جميع اصدقائي هجروني في وقت احتياجي اليهم لخشيتهم من التورط، في حين يبدو رامسي مصمماً على ملاحقتي وتدميري نهائياً.

ثم ناشدها بصوت تعيس مزق نياط قلبها:

ـ الا يمكنك ان تتوسطي لي معه يا كلير؟ لقد لاحظت الطريقة التي يرمقك بها، وهناك امل، مجرد امل بسيط، بانه قد يصغي اليك ويلبي لك طلبك.

فاعترفت بهمس بالكاد يسمع:
- لقد فعلت ذلك.
الا انه سمع عبارتها، فتعلق بها كتعلق الغريق بخشبة وقال بلهفة:
- وماذا قال لك؟
تعمدت ان تطلق ضحكة مرتجفة كي تظهر لامبالاة مزدرية ولتخفف بالتالي من غضب جوناثان، وردت بشيء من الهدوء:
- قال انه على استعداد لاسقاط دعواه عليك شرط ان اوافق على الزواج منه.
قلصت عضلاتها اذ توقعت ان ينفجر غاضباً، لكنها سرعان ما احست بصدمة عنيفة حين لانت اسارير وجهه بنظرة امل عريضة، وهتف بتفاؤل:
- وماذا كان جوابك يا كلير؟
كيف يستطيع في اي حال من الأحوال، ومهما استشعر فداحة وضعه ان يطرح عليها سؤالاً كهذا؟ احست بألم ممزق كما لو ان خنجراً يغمد في عمق قلبها. وحين استمرت تحدق اليه بذهول وبنظرات مغمسة بحيرة موجوعة، قفز واقفاً على قدميه وهتف بصوت كالفحيح:
- بحق السماء يا كلير! لا تدفعيني الى حافة الجنون. هيا، خبريني بسرعة، ماذا كان جوابك؟
شعرت عندئذ بان لا احد سيقدر في المستقبل ان يجرحها بهذا العمق، فأجابت بجمود شديد:
- لا تخش على نفسك من الجنون يا جوناثان. لقد قررت ان اتزوج رولف رامسي!

٥ - الزفاف الأسود

منذ سنوات طويلة، والتاج المزخرف والمصمم بروعة من الفضة المصهورة، لم يستعمل ليزين رأس عروس ارستقراطية. هذا الصباح، تم اخراجه من خزانة البنك الحديدية، وأوصله رسول مؤتمن الى بيت غارف فوكسديل قبيل ساعة الاحتفال.
كان والدها قد ابتهج جداً حين اختارت كلير ان يقام الزفاف تبعاً للتقاليد ولذا امر فوراً بارسال التاج الفضي الذي يشكل زينة جوهرية في الأعراس الملكية، كي يصار الى تنظيفه وتلميعه استعداداً لوضعه على رأس العروس لتعزيز جمالها الفائق. كان في تلك اللحظة جاثياً على طاولة الزينة في غرفة نومها، لكنها لم تهتم بروعته المتألقة واكتفت بالقاء نظرة سريعة عليه حين بدأت، بحركات آلية، ترتدي ثياب الزفاف الذي سيتم بعد ساعة من الزمن وسيكرسها زوجة لرولف رامسي.
كان من المفروض ان تعود تشاريتي ماكلاود الى كندا قبل اسابيع لكنها اصرت على البقاء لتحضر الاحتفال. قرعت الباب بنقرات خفيفة ولما اذنت كلير للطارق بالدخول اندفعت تدخل الغرفة بلهفة. لقد طغى عليها الفخر حين سمح لها بالمساهمة في التهيئة للزفاف، ولفرط حماستها وفرحها، لم تفطن في الاسابيع الماضية، الى ان كلير لا يبدو عليها شيء من التألق الذي يرافق تصرفات العروس السعيدة، وقد عزت صمت كلير وجمودها الى طبيعتها المعقدة المنكمشة ولذا لا يمكن الحكم عليها كالحكم على فتاة عادية الطباع والتصرفات. انها من النوع الذي لا يسمح لأي شخص بان يتوغل في اعماق نفسيتها الا اذا كان مقرباً منها جداً.

لكن حين صارت تشاريتي في وسط الغرفة، تأكدت من مجرد نظرة سريعة الى الفتاة، ان وجومها السابق يعتبر بسيطاً بالمقارنة مع تعابير صدمة شديدة ترتسم الآن على وجهها. اندفعت اليها تسألها في حنان جارف:

- عزيزتي، هل تشعرين بتوعك صحي؟

سارعت كلير الى شد قامتها وقالت وهي ترغم شفتيها المتخشبتين على الابتسام:

- انا على افضل ما يرام. شكراً.

ولحسن الحظ، انجذب اهتمام تشاريتي الى مشهد جديد اذ تسمر بصرها على الكتلة المتوهجة على طاولة الزينة، وراحت تتأمل بانسحار ادق تفاصيل التاج الذي صمم منذ عدة قرون لعرائس الرجال الأقوياء والمدثرين بجلود خشنة، الذين انقضوا على الجزيرة بخوذهم ذات القرنين.

تأملت كلير انعكاسها في المرآة الطويلة المثبتة في الجدار وهنأت نفسها على انها اتبعت التقاليد بحذافيرها. فكرت كم سيناسب نفسيتها ان ترتدي الثوب الأسود التقليدي لمناسبة زواجها من رامسي.

استطاعت تشاريتي ان تتغلب ثانية على استغرابها وقالت متلعثمة:

- عزيزتي، فستان عرسك... يثير الدهشة... وهو بالتأكيد يختلف عن كل الفساتين التي رأيتها في حياتي!

استدارت كلير على عقبيها كي تتيح لتشاريتي ان تتفحص بدقة الثوب الذي اختارت ارتداءه ليس بدافع عاطفي او بدافع الولاء للتقاليد، بل لأنها لم تكن لتطيق التظاهر بأنها عروس سعيدة ترفل بثوب من الساتان الناصع وبطرحة بيضاء نقية. فزواجها لن يعود كونه مسرحية ساخرة، ولذا سيساعدها هذا الرداء المسرحي على ابقاء مخاوفها ضمن الاطار المناسب.

اختنق النفس في حلق تشاريتي حين احست بالوقع الكامل لمشهد هذه العروس الصبية الرائعة وهي غاطسة تماماً في اللون الأسود... ثوب مخملي كالليل يكسو جسمها النحيل من العنق حتى اصابع القدمين، ومن الكتفين حتى الرسغين. لكن صدر الثوب المطرز بزهور والمزين بشرائط ملونة ساعد قليلاً في تخفيف حدة السواد، وكذلك حلية كبيرة مرصعة بالجواهر تتدلى من سلسلة ذهبية تصل الى ما تحت خصرها. وحين رفعت تشاريتي

بصرها، رأت الصرامة تتعزز من جديد بياقة منشاة من القطن الأبيض المكسر، وبطاقية من نفس القماش تحيط بوجه العروس كبتلات بيضاء تحف بقلب زهرة.

طغت الرهبة على تشاريتي واذهلتها ثم داخلها شيء من الريبة فبدأت تقول بضيق:

- عزيزتي، ان رولف رجل عصري الى ابعد الحدود، ولا شك انه يحترم التقاليد كاحترامنا وتقديرنا لها، شرط الا يضطر الى التورط فيها شخصياً.

وهنا رفعت كلير حاجبيها تتظاهر بالحيرة من ملاحظتها، فتابعت تشاريتي تقول بالارتباك اياه:

- ما احاول شرحه في الواقع هو التالي... ادرك جيداً انه من المحرم على العريس ان يرى ثوب العروس قبل يوم الزفاف، بيد اني فهمت من حديث رولف انه يتوقع رؤية عروسه في ثوب زفاف ابيض، وبالتالي اخشى ان يسبب له مظهرك هذا صدمة عنيفة...

لم ينقص ضيق تشاريتي مثقال ذرة حين لاح رضاء مريب على محيا كلير وغردت تجيبها ببسمة عذبة:

- اوه ارجو الا ينصدم لأن ذلك سيكون محرجاً للغاية!

توقفت تشاريتي عن متابعة استجوابها اللطيف لأن دخول العمة ايفي المفاجيء حال دون ذلك. شبكت العمة يديها بفرح ولهفة وقالت لكلير بصوت راقص:

- عزيزتي، يبدو ان جميع سكان الجزيرة سيحضرون حفلة زفافك! كنت في غاية الذكاء حين خططت لاحتفال نرويجي حقيقي ينسجم تماماً مع مهرجاناتنا الاحتفالية بالذكرى الالفية لجزيرتنا.

ثم اقتربت من طاولة الزينة واردفت:

- والآن، دعيني اساعدك في لبس التاج.

نظرت الى تشاريتي بوجه مشرق وتابعت:

- من حسن الحظ ان اخي احتفظ بهذا الارث العائلي ورفض التخلص منه بأي شكل.

وضعت التاج الفاخر على رأس كلير ثم تراجعت قليلاً الى الوراء لتتأمل النتيجة، وقالت تسأل تشاريتي بلهفة:

ـ انظري، الا تبدو فائقة الروعة والجمال؟
وبالرغم من هواجسها السابقة وظنونها، اضطرت تشاريتي الى الموافقة على ان وجنتي كلير البيضاوين كالشمع وعينيها الرماديتين كالغيوم داخل اطار الطاقية التاريخية، قد اكتسبت رهافة غريبة ومخيفة الى حد ما، احدثها التناقض العميق مع الثوب المخملي الذي كان يلتصق بثنايا جسمها كجلد ثان، مظهراً رشاقة مطواعة ومذهلة كلما اتت بحركة.
احست فجأة بفورة عطف على رولف رامسي، لم تستطع ان تقرنها بأي سبب واضح، وعجبت لجرأته التي دفعته الى الزواج من هذه الفتاة التي تختال بثوبها الرائع بشموخ وكبرياء وترتدي تاجها الفضي باعتداد اصيل كملكة متغطرسة.
وزقزقت العمة ايفي بجذل طاغ:
ـ اوه، يا للروعة الرومانسية! اني احب بعث الماضي من جديد. الا تحبين ذلك يا سيدة ماكلاود؟ اشعر فقط بشيء من الخيبة لأننا لن نعيد تطبيق الزواج على طريقة الخطيفة، أي التقليد النرويجي القديم حيث كان العريس يخطف عروسه وهي على وشك الاقتران برجل آخر.
وران على الغرفة صمت مميت، فأدركت العمة ايفي انها، بالرغم من انفعالها، قد ارتكبت هفوة رهيبة. صعد الدم الى وجنتيها، وغمغمت بدون ان تنظر الى محيا كلير الجامد التعبير:
ـ سامحيني يا عزيزتي، سأذهب الآن لأخبر اباك انك على استعداد لبدء الاحتفال.
غلطة العمة ايفي اكدت لتشاريتي فوراً ان ظنونها كانت في محلها، ودفعها قلقها على مصلحة رولف الى ان تستوضح كلير بحدة:
ـ هل سيحضر جوناثان حفلة الزفاف؟
اجابتها العروس ببرود وحزم لتلزمها حدودها:
ـ هذا ما ارجوه بالتأكيد، ففي مناسبات كهذه يحتاج المرء الى دعم اعز اصدقائه واقدمهم عهداً.
الامتياز العصري الوحيد الذي ادخل على برنامج الاحتفال التقليدي، تمثل في السيارة الفارهة التي اقلت العروس ووالدها وعمتها الى الهيكل الحجري الصغير ذي الجدران المنخفضة والسطح الباهت اللون والبرج

العالي المزين بمتسلقات خضراء. كان مكاناً متواضعاً، لا اثر فيه لأية زخرفة هندسية، بل مجرد بناء ناصع البياض مستطيل الشكل صنع سقفه من صخور مانكسية سوداء وله نوافذ شرقية وابواب تطل على الغرب.
كانت كلير تؤمه منذ طفولتها، ولكونها معتادة عليه وتستمد من جوه الهادىء قوة معنوية عميقة، فقد اصرت على ان يتم زواجها فيه دون سواه، وذلك بالرغم من معارضة ابيها على صغر حجمه الذي لن يتسع لايواء جميع المدعوين. الا انها تشبثت برأيها، ولو اضطر معظم المدعوين الى الوقوف خارجاً.
لكن سرعان ما اثبتت الجماهير الهاتفة والمصطفة على جانبي الطريق، على انه لا يوجد في طول الجزيرة وعرضها مكان يتسع لاحتواء كل تلك الحشود المتفرجة والتي صمتت بذهول لدى مرور العروس ثم انفجرت تطلق هتافات اعجاب صاخبة حين ترجلت كلير من السيارة باعتداد ورباطة جأش، يميزان شخصيتها الفذة عن شخصيات سائر النساء.
ومن اجل ان تنتقم من عريسها الغافل عما يجيش فيها من سخط، كانت كلير قد هيأت لاقامة الاحتفال التقليدي في الهواء الطلق وعلى منصة مرتفعة. وهذا الجزء من خديعتها، كان الدافع ولا ريب، الى العبوس العاصف الذي لمحته في وجه رولف وهو ينتظر متململاً انضمامه اليها على المدخل المسقوف، كما ينتظر ممثل ثانوي لحظة ابتداء دوره. كان يغمرها فرح شرس لأنها استطاعت ان تقنع اباها، بعبارات رقيقة ناجحة، بأن عريسها الكندي العصري سوف يعارض بشدة اشتراكه في أية طقوس تقليدية، وبأن نجاح المهرجان التاريخي سوف يتوقف فقط على ابقاء الأمر سراً عنه.
كانت تسير بين عمتها وأبيها وكلاهما يتأبط احدى ذراعيها ويدفع بها الى الأمام فيما تقوم هي بحركات عزوف وتردد لتحاكي خجل العرائس في الأيام الغابرة.
اما رولف، فكان يرتدي سترة سوداء طويلة وقميصاً رمادياً وسروالاً اسود مقلماً بخطوط رفيعة رمادية. بدا حائراً في ما يجب ان يفعله حين اقتربت عروسه منه. لقد املت بان تفاجئه بلباسها وتوقعه في ورطة، لكنها لم تدر انها اخفقت في ذلك جزئياً. لا ريب ان الغضب كان يستعر في داخله

لكنه استطاع ان يبدو هادئاً، مشدود القامة شامخ الرأس، كما بدا وسيماً الى ابعد الحدود.

جرها ابوها وعمتها ومرا بها امامه وهي ما تزال تتصنع الخجل والتردد، ثم اجلساها على مقعد احتفالي مهيب. تقدمت منها ست فتيات تم اختيارهن من قرية مجاورة، ونصبن فوق رأسها ستاراً من الشالات الملونة ليحمينها من نظرات الحسد الشريرة. ثم البسها والدها حذاء تقليدياً، يقضي العرف بأن يكون خالياً من أي عقد او شرائط او ازرار لتستطيع ان تنجب الاطفال بسهولة وبدون ألم. ثم وضع قطعة نقد فضية في الحذاء الأيمن، ووضعت عمتها قطعة ذهبية في الحذاء الأيسر كي تنعم بحياة طويلة من الوفرة المادية.

لم يملك رولف الا ان يبتسم بسخرية واضحة حين اشاروا اليه بالتقدم لينضم اليها. وطوال هذا الاحتفال بحثت في وجه رولف وحركاته عن تعبير ارتباك او حرج، الا ان عريسها كان يؤدي الواجبات المطلوبة منه برباطة جأش وفورة، ويستجيب للارشادات بسرعة مذهلة، ولذا استحال عليها ان تصدق بانه يقوم بكل هذا للمرة الأولى وبلا تمرين مسبق!

وحين دفعوا اليها بشمعة مضاءة، وذلك دلالة على اتمام الاحتفال، مررت يدها بخفة فوق اللهب، لترمز الى انها تطهرت نهائياً من اي تأثير شرير قد تكون احدى بقاياه ما تزال عالقة بها من حياتها الماضية. ثم نهضت واقفة على قدميها وقاومت اغراء داخلياً بأن تتغاضى عن الانحناءة التقليدية، الا ان الحاضرين سارعوا الى التصفيق الحار للتعبير عن استحسانهم وتقديرهم لها. ومن طرف عينيها، استرقت نظرة سريعة الى عريسها فرأت الامتعاض مرسوماً على فكه المتقلص، واحست نشوة فرح اذ اكد لها هذا ان الخطة التي رسمتها لاذلاله وتحسيسه بانه دخيل عليهم، قد بدأت تعطي ثمارها! ابتسمت بانتصار جذل حين توجها جنباً الى جنب الى الداخل ليجري احتفال زواجها الشرعي. لكن انتصارها خبا حالما تردد صدى خطوتها الأولى على البلاط الحجري.

وحين بدأ صبية الكورس يرتلون على انغام الارغن الهادئة اخذت ترتجف وقد ثلجت اطرافها موجة من الوقار البارد.

- اني اتخذك ... زوجاً شرعياً لي... لأحبك واخلص لك...

لاشاركك السراء والضراء... من اليوم فصاعداً...

لا يمكن ان تكون هي التي تتلفظ بهذه الوعود الجوفاء وتوجهها الى هذا الرجل الغريب الواقف بجمود الى جانبها، والذي تبدو ملامح وجهه النحيلة اكثر غرابة بفعل الظلال المتراقصة التي ترسلها شموع مثبتة في قواعد ذات اشكال تشبه الحراب.

- اني اتخذك... زوجة لي... اتعهد بان احبك واخلص لك... الى ان يفرق الموت بيننا...

لم يكن في صوت عريسها أي اثر للتشدق المتراخي الذي اعتادت ان تقرنه به، بل بدا لها جدياً واجماً كوجهه الصارم حين وضع الخاتم الذهبي حول بنصر يدها اليسرى، وحيث يقال ان شريان الحب يمتد منه الى القلب مباشرة... وبقيت تنظر الى الارض مسدلة الجفنين وهي تصارع احساساً غريباً بالخجل لكونها حرمته من ذكرى رائعة يعتز بها معظم الرجال، ذكرى مشهد عروسه في ثوب الزفاف الأبيض.

خرجا ليركضا هاربين من مطر الرز الذي رشه الناس عليهما من باب التيمن. ثم جاءت اللحظة التي كانت ترهب وصولها، لحظة اختلائهما ببعضهما البعض لأول مرة، اثناء عودتهما بالسيارة الى بيتها حيث ستقام حفلة الاستقبال.

لكنه كتم امتعاضه داخل نفسه، اما بسبب الغضب الذي استشعرته يستعر في عمق اعماقه والى حد اعجزه عن التعبير، او لأن سائق السيارة الضاحك الثغر كان يرقبهما بامعان عبر المرآة الصغيرة امامه. لكن حالما دخلا بهو بيتها الهادىء، استغل رولف تأخر المدعوين في اللحاق بهما لبضع دقائق، فامسكها بعنف من كتفيها وراح يحدق اليها بلا كلام، حتى خيل اليها ان تلك اللحظات القليلة لن تنتهي ابداً. وفي الأخير قال بصوت كالفحيح:

- اذا كنت هدفت الى ارباكي بارتدائك هذا اللون الأسود الذي يختاره الخطاة والتائبون عن خطاياهم فقد اصبت ذلك الهدف تماماً! أي نوع من النساء انت، يا كلير؟

رمقها بازدراء شديد مظهراً امتعاضه وقرفه من فستانها المخملي الأسود وطاقيتها الناصعة كالثلج وتابع يقول:

- اني لأتساءل، هل تراني تزوجت مغنية كورس ام تزوجت فتاة متنسكة!

حالما تجمع المدعوون في قاعة الاحتفال بدأ الخدم يوزعون عليهم كؤوس الشراب. تناولت كلير كأساً من شراب التوت باصابع مرتجفة، وانتهزت اول فرصة سنحت لها كي تهرب من جانب عريسها المقطب والكئيب على غير عادة. شقت طريقها بحذر صوب اقرب مجموعة من الضيوف كي يبدو ان اختفاءها المفاجىء وسط الناس قد حصل بمحض الصدفة.

وراح هؤلاء يمطرونها بعبارات التهنئة والاعجاب.

- عزيزتي، لم اشهد في حياتي زفافاً رائعاً كهذا...

- يا له من زفاف نادر المثال. عزيزتي، كم بدوت هادئة متماسكة الاعصاب على الرغم من حشود المتفرجين.

واستطاعت بشكل ما ان تغمغم الاجابات المناسبة وهي ترغم نفسها على الابتسام وهدوء التعبير كي لا يلحظ احد مدى ندمها على خديعتها لرولف رامسي، الرجل الذي اختار العيش في غابات كندا الشمالية، حيث السكان منذ القدم ورثوا القدرة على التعامل بحذر ونجاح مع مخلوقات البراري الشرسة، بفضل ابصارهم الثاقبة وحواسهم السمعية المرهفة.

استدارت مبتعدة عن تلك المجموعة، وفي نيتها ان تمتزج بواحدة اخرى، لكنها وجدت نفسها تقف وجها لوجه امام جوناثان وكأنما القدر اراد لها ذلك. لم تكن قد تبادلت معه اية كلمة ولا اتصلت به بأي شكل منذ تلك الليلة التي قررت فيها ان تقبل عرض رولف للزواج. لكن حين وقفا معاً بمعزل عن المدعوين واشتبكت عيونهما في نظرة طويلة، شعرت بلسانها ينعقد في فمها ويعجزها عن التلفظ بأية كلمة.

الا ان لسان جوناثان لم ينعقد بتاتاً. وسألها بغمغمة خشنة استطاعت ان تسمعها برغم حدتها الخفيضة:

- كلير، لماذا كنت تتحاشينني طوال هذه المدة؟

كان يحترس، كعادته، في الا يراه الناس في موقف خادش للآداب الاجتماعية ولذا حاول جهده ان يبدو دمث التعبير باسم الشفتين وهو يتابع

تأنيبه قائلاً:

- كنت احسبك اكثر اخلاصاً ومودة يا كلير، لكنك، ككل شخص آخر من سكان الجزيرة، تبدين مصممة على القائي في الحضيض. وعلى الرغم من ان رامسي حافظ على كلمته وحال دون انفجار الفضيحة، الا ان الشائعات بدأت تنتقل من لسان الى لسان، وحقيقة اني صرت زائراً غير مرغوب فيه بالنسبة اليكم تضيف وقوداً الى لهب الشائعات. ما زلت احبك يا حبيبتي، وبالرغم من انك هجرتني من اجل رولف رامسي، فانا واثق من انك ما زلت تكنين لي شيئاً من العطف والمودة، وهذا ما يشجعني الآن على التوسل اليك بان تثبتي خطأ الشائعات، وتبيني استعدادك لمعاملتي بمودة، كي تشجعي الآخرين على ان يقتدوا بتصرفك.

حدقت اليه باستغراب شديد وسع عينيها الرماديتين، وتساءلت كيف استطاعت طوال الوقت، ان تتغاضى عن سطحيته وأنانيته! لقد استطاع بشكل لا يصدق، ان يقنع نفسه بأنها خانته وهجرته من اجل رجل آخر، وبأنه اتهم باللصوصية ظلماً وعدواناً! ومع ذلك لم تقدر ان تشعر ازاءه بأي غضب، انما احست فقط بعطف وحزن على هذا الرجل الذي كانت على استعداد للزواج منه في وقت مضى.

وباندفاع تلقائي وجدت نفسها تتأبط ذراعه وتبتسم له بلطف وتشجيع... اذا كانت هذه البادرة من جانبها هي كل ما يحتاجه لاعادة حياته الى سابق عهدها ولتصحيح اوضاعها المقلوبة، فلا يجب ان تعامله بخساسة وتبخل عليه بدعمها.

سمعته يتنهد بارتياح عميق، واستشعرت امتنانه من خلال قبضة اصابعه المحكمة على يدها. وحاولت ان تخفي وجلها من كل وجه اسمر، تحسبه وجه رولف، حين اخذ جوناثان يدور بها مزهواً في ارجاء القاعة.

لكنها احست بدهشة المدعوين وهم يرون العروس تختال بينهم وتتأبط ذراع الرجل الذي هجرته على حد علمهم وليس من المفروض ان تقترب منه بأية صورة من الصور! اجفلت داخلياً من مرأى حواجبهم المرفوعة باستنكار، ومن اصداء الهمسات المستهجنة التي كانت تحرق سمعها وهم يتناقلون الانتقاد اللاذع فيما بينهم.

بدا لها ان دهراً قد مر بدل تلك الدقائق المعدودة التي قضتها مع جوناثان

قبل ان ينتابها شعور مسبق بالرهبة ما لبث ان تحقق حين سمعوا خلفهما صوتاً يخاطب جوناثان بتشدق شديد الوضوح:

- اخشى يا جوناثان، اني مضطر الى مطالبتك بابعاد يديك ونفسك عن زوجتي.

كانت نبرته خفيفة وتعبير وجهه مهذباً دمثاً، بيد انها لم تنخدع بهما اذ احست بالخطر الكامن في عمق عينيه المتوهجتين غضباً. مد لها يده وقال يخاطبها:

- يبدو ان الوقت حان لتبادل الأنخاب.

انفض الناس من حولهم بسرعة مذهلة وتركوهم لوحدهم كثلاثة خصوم تضمهم حلبة من الكراهية. ومن باب المراعاة للأعين الكثيرة التي كانت تراقبهم بدقة فضولية، اضطروا الى المحافظة على تبادل المجاملات الودية، الا ان كلير شعرت بهشاشتها كما لو انها متهمة بريئة تلقى بين براثن الأسود، حين زأر زوجها بنبرة خفيضة مخاطباً جوناثان:

- اني اتساءل عن النخب الذي ستختاره يا هيوود؟ نخب النصر للمهزومين؟

ثم احاط كتفي كلير بذراع تملكية ليعطي انطباعاً ظاهرياً بانه زوج مخلص فخور، وتابع يخاطب جوناثان انما بدون ان يزيح عينيه عن محيا زوجته:

- يؤسفني ان اخيب املك، فوطني، بالرغم من حداثة عهده، يمتلك تقاليد خاصة به ومقاييس خلقية توارثها جيلاً بعد جيل عن اجداده الأوائل الذين اقتحموا البراري وكرسوا قدراتهم الذهنية والمادية لمصارعة وترويض المخلوقات والعناصر الشرسة، والأخرى غير القابلة للترويض. ان احد تلك المقاييس يحرم على الرجل تحريماً كاملاً ان يتطفل على املاك رجل آخر او ان يسرق طريدة من مصيدة رجل آخر. اما العقاب المنزل بأي من هؤلاء المعتدين فكان رهيباً وسريعاً، وقد يظل كذلك يا هيوود.

استدار الى جوناثان ليكمل تهديده وقال بحدة بطيئة تجمد الدم في العروق:

- قد يظل كذلك حتى يومنا هذا!

٦ - ملكة . . . في شهر العسل

وقف غارف فوكسديل بين المدعوين، وأعلن بصوت عال ينضح بالفخر والمحبة:

- لنشرب نخب ابنتي كلير وصهري رولف، مع الدعاء لهما بسعادة عظيمة تواكب حياتهما الزوجية.

فردد الحضور بفرح واعتزاز:

- مبروك لكلير ورولف.

رفعوا الكؤوس حتى منتصف صدورهم، ثم خفضوا رؤوسهم ليرشفوا الشراب وابصارهم تلتقي بعضها بعضاً. اعادوا الكرة كما تقتضي التقاليد ثم اعيدت الأكواب الى المائدة.

لم تتوقف كلير عن مراقبة عريسها في الخفاء، واستشعرت من تعبيره وحركاته ان صبره على وشك النفاد. كانت هي نفسها تعاني صداعاً مؤلماً فتمنت لو ينتهي الاحتفال سريعاً كي تستطيع القاء رأسها النابض على وسادة مريحة.

قالت عمتها فجأة بصوتها المرح:

- على فكرة، أين ستقضيان شهر العسل؟

اهتزت يد كلير على الرغم منها فاخفتها في ثنايا ثوبها ولم تحر جواباً.

كانت طوال الوقت تركز ذهنها على ترتيبات الزفاف فلم تفكر لحظة في ما سيحدث بعده.

تضرجت وجنتاها بحمرة ثانية وهي تبحث في رأسها المصدوع عن جواب مقنع لكن رولف هب لانقاذها قائلاً:

- ذلك سر احتفظ به لنفسي.

فاستوضحت العمة ايفي بفضول:

- اتقصد ان كلير نفسها لا تعرفه؟

لاحت على شفتيه ابتسامة غامضة وقال ليتهرب من اجابة واضحة:

- ان اوراق العشب تبدو كورقة واحدة في نظر العروسين العاشقين.

عاد خدا كلير يتضرجان خجلاً، فألقى عليها نظرة ساحرة متمعنة وسألها بخبث مقصود:

- الا توافقيني رأيي يا عزيزتي؟

شعرت بنظرة عمتها الفضولية تثقب جلدها كما لو بدبوس، فغمغمت كلمة موافقة ثم احست نحوه بامتنان بسيط حين لف خصرها بذراعه القوية وحثها على التقدم.

قال لعمتها بتهذيب:

- نرجو المعذرة. ان اخاك يلوح لنا كي ننضم اليه.

شعرت كلير ان الكبح الذي التزمه لفترة طويلة قد بدأ يتحول الى ضيق عصبي وهو يشق طريقهما وسط المدعوين الذين كانوا يظهرون دلالات فرح صاخب واستمتاع عظيم، وحين وصلت غرفة الموسيقى هتفوا يرحبون بقدومها وبدأوا يتدافعون افواجاً في اتجاه الباب المؤدي الى غرفة فسيحة اخليت ارضيتها من الأثاث ليرقصوا عليها.

وهنا همس رولف في اذنها بصوت خشن ساخر وقد قرر ان يتخلى عن كل مظاهر اللياقة السابقة:

- متى ستنزل الستارة على الفصل الأخير لتتمكن من الانحناء للمتفرجين وتوديعهم؟ لو اني كنت على علم مسبق باني سأتورط في مسخرة واوضع على مسرح لأقوم بحركات خاصة وأسلي الجماهير كدمية راقصة متحركة، لكنت رفضت ذلك واصررت على زواج خطيفة!

فردت عليه بابتسامة مقنعة بالحلاوة:

- انت لا تقدر مواهبك الفذة! هناك دور واحد تبرع فيه بصورة خاصة، فقد استطعت، بالرغم من كل شيء، ان تقنع معظم الحضور بأنك رجل متمدن!

تحررت بخفة من قبضته، وتمكنت في اللحظة الأخيرة من تجنب اصابعه

المنقبضة التي كانت على وشك ان تعتصر خصرها من جديد بقصد ايلامها وتلقينها درساً في الطاعة، ثم هرولت تقف الى جانب ابيها لتحتمي به.

وهتف غارف فوكسديل وهو يبتسم باشراق لصهره الخائر:

- كل شيء جاهز. لقد حان الوقت لأن ترقص العروس وتتخلى عن تاجها لسواها.

لم تجسر حتى على النظر اليه من طرف عينيها حين قادهما ابوها معاً الى قاعة الرقص، حيث كان المدعوون قد انقسموا الى مجموعتين، النساء في جانب من الغرفة، والرجال في جانب آخر.

كانت تعرف بالضبط ما يتحتم عليها فعله. ولذا لم تبد اية مقاومة عندما تقدمت منها مجموعة من الفتيات وعقدن حول عينيها عصابة سوداء ثم تحلقن حولها في دائرة بشرية اقتصرت فقط على الفتيات العازبات اللواتي حضرن الاحتفال. انزلت التاج عن رأسها وحملته باحدى يديها ثم راحت ترقص وتبحث في الوقت نفسه بيدها الاخرى عن اقرب فتاة اليها، لتمسكها مغمضة العينين، واذا امسكتها يصبح من حقها ان تلبس التاج الفضي لانه من المفروض تبعاً للخرافات بأن تكون الأولى، بعد كلير، على لائحة الزواج. وفي غمرة الهتاف والضحكات المنفعلة، استطاعت العروس من دون صعوبة ان تعتقل الفتاة المطلوبة التي ما لبثت ان اخذت مكانها وسط الحلقة، وتابعت الرقصة التقليدية التي تكررت حتى تم تتويج جميع اولئك العازبات، واحدة اثر اخرى.

جازفت كلير بالنظر الى الجانب الآخر من الغرفة حيث كان عريسها يخضع لاحتفال تقليدي من المفروض ان يقتصر على الرقص والضحك وتبادل المداعبات، الا ان الانفعال المفرط لدى الشبان حوله الى معركة صغيرة من العبث القتالي، وفي تلك اللحظة بالذات رأت رولف، يقذف عالياً في الهواء ثم يهوي بسرعة ويختفي تحت خيمة من الاكتاف العريضة.

ولأول مرة منذ اسابيع ضحكت ببهجة حقيقية واحست استمتاعاً تاماً بتعرضه الى كل هذه المضايقات المهينة لكرامته. لكن سرعان ما تحولت ضحكتها الى شهقة استغراب حين شعرت بنفسها ترفع فجأة عن الأرض ثم تحمل بين ذراعين قويتين فوق رؤوس المدعوين ووسط هتافاتهم المدوية.

وبمرونة رياضية فذة، حملها رولف الى غرفتها في الطابق الثاني، كأنه يحمل رزمة كبيرة من الشمع الأسود. بدا مبعثر الشعر حانق الوجه لكن انفاسه لم تتأثر بذلك الصعود السريع بتاتاً. قال لها بصوت آمر:

ـ سنخرج بأسرع ما يمكن من هذا المكان المأفون! سوف امهلك خمس دقائق فقط كي ترتدي شيئاً معقولاً، واذا لم اجدك مستعدة في الوقت المحدد، سأتبع معك تقليداً خاصاً بي ونجاحه مضمون مئة بالمئة!

كانت حقائبها قد وضبت في وقت سابق ووضعت في صندوق السيارة فلم يبق من ثيابها الا ما سترتديه في الرحلة، وهو تايور خفيف بلون الكريم، قماشه من الصوف الذي غزله بعض حائكي الجزيرة خصيصاً لهذه المناسبة، مناسبة خروجها من بيت ابيها ومرافقة زوجها في بداية رحلتها الطويلة معاً... فتحت الخزانة الخاوية وبدا التايور بائساً ووحيداً مثلها تماماً. ازاحته عن العلاقة، وبدأت ترتديه باصابع مرتجفة. لم تبعد نظرها عن الساعة المعلقة على الجدار لخشيتها ان ينفذ رولف وعده العنيف ان هي تأخرت عن الموعد المضروب. لم يتكلم باسلوب عادي خفيف بل باسلوب وجل انقطع حبل صبره على حين غرة. لا بد ان هذا اليوم كان مليئاً بالصدمات والمفاجآت بالنسبة اليه، لكنه واجهها برباطة جأش فاقت توقعاتها. ان مسلكه الرصين المتماسك عبر عن قدرته الفائقة على التكيف مع الظروف الصعبة بهدوء وصبر واحتمال، ولولا البسمات الساخرة التي داعبت شفتيه بين الحين والآخر لما تحركت فيه عضلة لتدل على انفعالاته الداخلية. لكن كأس غضبه فاضت وما عاد يهتم باخفائه عن احد.

انفتح باب غرفتها بعنف، وقال فوراً:

ـ عظيم! يسرني انك عملت بنصيحتي.

سار الى وسط الغرفة بخطوات هادئة، وبدا جانب وجهه الأسمر النحيل كأحد التماثيل المهيبة التي كان الهنود البدائيون ينحتونها في جدران الصوان القاسي.

اخذ يتأملها بامعان فانتظرت نتيجة التفحص وهي واثقة من انه لن يجد اي عيب في مظهرها الكامل الاناقة، لكنها احست بصدمة حين علق بحنق هازىء:

ـ ألا تلبسين ابداً الواناً زاهية؟ هل عليك ان تحافظي باستمرار على

مظهرك الوقور؟ الا يمكنك احياناً ان تسترخي او تصرخي او تزعقي، او ان تنخرطي حتى في بكاء انثوي ناعم؟

رمشت بعينيها بفعل المفاجأة ثم اقسمت بينها وبين نفسها الا تدعه يعرف ابداً انه كاد يبكيها فعلاً ويحملها على اظهار ضعف ما اعتادت اظهاره في حياتها.

تناول ذقنها بين ابهامه وسبابته ثم رفع رأسها الى فوق وحدق بارتياب في تقاسيمها... عينان رماديتان جامدتان تبادلانه التحديق، منخران رومانيان منفتحان قليلاً وفم مزموم بكبرياء ممتعضة. ابتسم لها باعجاب ملحوظ لكنها رفضت الاستسلام لذلك التحدي. قال معلقاً بقسوة:

ـ من الداخل، كلك نار وشجاعة، ومن الخارج، ملكة نرويجية ثلجية.

ترى، الى اي من هذين الوجهين انجذب جوناثان هيوود، الى الداخلي ام الخارجي؟

لوى شفتيه بازدراء وتابع:

ـ اعتقد انه كان يعتمد على قوتك ويسعى الى الاحتماء بمسلكيتك الآمرة، باستعلائك النافذ وبشخصيتك اللطيفة المتفوقة. هل كان يشعر بالأمان والدلال تحت جناحك؟

مال برأسه نزولاً حتى كاد ان يلامس وجهها الواجم، واردف بسخرية:

ـ لكني لست عازماً على التوله بك من بعيد يا عزيزتي، وان اكون مجرد رفيق لجلالة الملكة! انا زوجك، واريد زوجة دافئة محبة تشاركني حياتي!

عانقها بشكل مفاجىء ارعبها فاستجمعت كل ما لديها من ارادة لترغم جسمها على البقاء ساكناً بدون اي تجاوب ولا حتى برمشة عين. لكنه حين لف ذراعيه حولها تجاوب كل عصب فيها مع نبضات جسمه النحيل المتين. وغمغم بصوت اجش:

ـ يا ملاكي، يا ملاكي الاشقر... قولي انك تحبينني... انظري الي، دعيني احدق في عمق عينيك لأرى فيهما الصدق وانت تقولين ذلك.

ومع ان قلبها كان يخفق بجنون ويستعر ككرة من النار، وذهنها يتراقص في دوامة من الخواطر الحائرة، الا انها رفعت اهدابها ببطء حتى بدت كستائر ذهبية كثيفة تحيط بعينيها المضطربتين كبحر تتقاذفه امواج عاصفة. راح يحدق فيهما بعمق وتمهل، ثم انطفأت ابتسامته وتغضن جبينه بأخدودين

متوازين لفرط امتعاضه.

سألته لاهثة كما لو انها انتهت لتوها من سباق طويل:

ـ لماذا العبوس؟ الا يعجبك ما ترى؟ بالطبع، لم تكن غبياً الى حد اعتقادك باني سوف اقبل طائعة بان اقوم بدور الزوجة الخاضعة الهادئة، وارضى بالسير وراءك على مسافة خطوتين لسائر ايام حياتي، لمجرد انك ساومت علي ودفعت ثمني كعروس على طريقة اصدقائك الهنود؟ اذا كنت تريد رؤية الحقيقة فانظر جيداً في عيني يا رولف رامسي! اني اكرهك! احتقرك! لمستك تملأني بالقرف! ثم ان اشمئزازي من الطريقة التي عاملت بها جوناثان، الطريقة التي شويت بها اعصابه على نار القلق، سوف تلاحق ذاكرتي الى الأبد! اذا كان مبتغاك الحصول على زوجة، اذن ارجع الى غاباتك الشمالية التي تليق بك واختر لنفسك زوجة من بين مئات النساء المتوفرات هناك!

وحين كز على اسنانه البيضاء استعداداً لمقاطعتها اردفت تتهمه بصوت مرتجف:

ـ اياك والتظاهر بالغضب وانجراح الكرامة، فلقد حدثتني تشاريتي عن آنغس رامسي وعن زوجته الهندية، تلك المرأة التي ورثت عنها طباعك البدائية بلا ريب!

سقطت يداه الى جانبيه، ولما خطا مبتعداً عنها تملكتها رعدة خفيفة اذ شعرت بانه يسحقها بعينيه المحدقتين فيها بشراسة وسط وجهه المربد كوجه حيوان هندي.

وقف امامها يعقد ذراعيه بقوة على صدره كما لو انه يكبح رغبة جامحة في ان يهزها بعنف، وقال:

ـ اذن لهذا السبب انت تخافين مني! لهذا السبب يشمئز جسمك من لمستي، لأن رجل بدائي متوحش لا يليق بناسكة عفيفة على غرارك! لقد حان الوقت لأن تكبري وتنضجي يا كلير.

ارتفعت نبرته كما لسع السوط فقفزت ذعراً. . . تابع محدقاً اليها بغضب:

ـ حان الوقت لأن تفترقي نهائياً عن سيطرة والدك الذي علمك كل اصول اللياقة الاجتماعية انما حرمك من الحس العاطفي الذي هو حق

طبيعي لكل امرأة جميلة. انك تستشعرين في الفطرة الموجودة لدى كل رجل، وانا لا يمكنني انكار وجودها، لكن الزمن وحده كفيل باقناعك باني لست وحشاً يحب تعذيب الآخرين.

رفعت رأسها بعنف لترمقه بنظرة استعلاء وسألته:

ـ الزمن؟ اتقصد انك تنوي فرض وجودك علي بالرغم من انني اوضحت لك اشمئزازي بصراحة تامة؟

رأت عضلة تقفز بعنف في وجنته فاحست انها حققت عليه انتصاراً بسيطاً غمرها بالسرور. بيد ان ابتسامتها تجمدت على شفتيها حين قفز فجأة كما الهر وطوى المسافة بينهما. وفح بصوت يحمل في طياته هدوءاً قاتلاً:

ـ لقد ارتبطنا اليوم معاً برباط الزوجية المتين، وسواء شئت ام ابيت، سوف نتعاون معاً على انجاح زواجنا بكل الطرق الممكنة!

ولكونها تروضت على الطاعة تحت طائلة التهديد بأن تجر الى خارج البيت تحت ابصار الضيوف الذين سوف يشهدون خزيها وذلها، سمحت له بان يقودها الى الطابق الأرضي وعبر الردهة الخالية ثم انسلت بلا اعتراض الى المقعد الامامي للسيارة التي كانت متوقفة في الممر استعداداً للانطلاق بهما الى المطار. حاولت مرتين ان تلبي اغراء الهرب من اصابعه القابضة باحكام على ذراعها، وان تهرع عائدة الى ابيها لتناشده انقاذها من عريسها الطاغية الا انها كبحت هذا الاغراء لتأكدها مما سيكون عليه رد فعل ابيها. فرولف رامسي، في نظره، قد برهن على تمتعه بكل الحسنات المطلوبة في الصهر الفاضل، والاهم من كل ذلك، ثبت ان جذوره العائلية مدفونة بعمق في تاريخ الجزيرة، وطالما ردد والدها ان المانكسيين يجب ان يتزوجوا فقط من بعضهم البعض، وذلك انطلاقاً من قناعته الفخورة بان سلالتهم قد احتفظت بنقائها على مر الزمن. ولذا، ان حاولت ان تشرح له الواقع، لن يصدق في اي حال ان زوجها الداكن العينين الصقري الوجه، يعتبرها مجرد جائزة ربحها في مساومة ناجحة وانه لن يتردد في التخلي عنها حالما يلتقي فتاة اخرى تستحوذ على اعجابه.

كان الجو داخل السيارة متورماً بنبضات خافقة ثقيلة لا علاقة لها اطلاقاً بهدير المحرك. لقد قطعا بضعة اميال في صمت مطبق، الى ان اندفعت

كلير، على الرغم منها، الى كسر التوتر الرهيب، فسألته بصوت مرتجف:
- متى تقلع الطائرة؟ احسبنا سنسافر الى كندا؟
فوافقها بفتور:
- هذا ما انتويته في البداية.
ثم فاجأها بقوله:
- لكني غيرت رأيي.
لم يشرح لها السبب الذي حداه الى ذلك، وبدا منشغلاً بقيادة السيارة باحتراس على المنعطفات العديدة والتقاطعات الخفية التي تجعل تلك الطريق المسيجة بالاشجار مبعث خطر للسائقين غير الحذرين بما فيه الكفاية. مرا بعدة قرى صغيرة لكل منها مدفنها الخاص حيث يغطي الطحلب شواهد القبور المحفورة عليها اسماء الموتى باللغة المانكسية القديمة.

وحين اعتلت السيارة تلاً شديد الانحدار، تعرفت فوراً على مشهد البحر والسماء وحقول الخلنج. وتأكدت ظنونها تماماً، حين لمحت من خلال الشفق المتجمع اضواء البيوت التي تحيط بشوارع تمتد صعوداً من مرفأ صغير. لكنها تعرف، ان ما وراء ذلك، لا توجد بيوت انما اراضٍ موحشة وشاسعة، يكسوها الوزال وتمتد حتى حفافي الصخور الضخمة التي تستوطنها طيور البفن البحرية ذات المناقير الملونة والغلموت البحري الشمالي.

الى اين سيمضيان، ولماذا هو صامت يرفض الادلاء بأي شيء يوضح مبتغاه؟ بدأت تفقد رباطة جأشها واستوضحته بحدة:
- اين ستمضي بي؟ هذه ليست طريق المطار.
فأجابها بتشدق:
- لم كل هذا الذعر في نبرة صوتك؟ هل ترهبك فكرة الانعزال الى هذه الدرجة؟ من المفروض في العشاق ان يسعوا الى العزلة من تلقاء انفسهم، ام انك لا تعرفين ذلك يا عزيزتي؟
وحين ردت على سؤاله الساخر بصمت مزدر، تابع يقول بشيء من الندم:
- لقد خططت، او بالاحرى كنت متشوقاً الى تعريفك بالبراري التي

نشأت فيها. اردت ان ارقب الدهشة على وجهك وانت ترين لأول مرة نموذجاً صغيراً لغابات كندا الشمالية وهي تلوح كقطعة ابدية من الاشجار المهيبة ذات الروعة الملكية التي تشل الحواس تقريباً. وكان في نيتي بعد ذلك ان نتابع الرحلة الى الداخل، لأريك طبقات الصوان البارزة بضخامة، وهي في الأصل اجزاء من اديم الارض يعود تاريخها الى حقبة انتهت قبل ستمائة مليون سنة تقريباً. كذلك اردت ان اريك الصخور المائلة التي تشكل فجأة اجرافاً شاهقة نتوءات ضخمة غريبة الاشكال توشيها نباتات الأشنة الأخاذة بلونيها الأحمر والأخضر. ثم هناك المياه على انواعها...

تحركت قليلاً على مقعدها وقد حيرتها النبرة الحالمة التي طرأت على صوته وطغت عليه حين اخذ يستعيد تلك الذكريات الغالية كما لو انه نسي وجودها من اساسه... وتابع كمن يحدث نفسه:
- المياه! يا لها من كلمة هزيلة لوصف تلك الوفرة المتنوعة من الينابيع الجارية بلطف والشلالات المتدفقة المتدافعة بروعة! اذا اردت مزيداً من تلك المدهشات الرائعة التي تذهل الخيال، فهناك ذلك الوقع الذي يشعره كل انسان حين يقع بصره لأول مرة على الاشجار العتيقة الباسقة التي نبتت منذ قرون وما تزال قوية ومعافاة مع ان جذوعها السفلى تظهر آثار الحريق الذي شب فيها قبل مئة عام ونيف.

شعرت كلير بلهفة غريبة الى ان ترى بام عينيها كل تلك المشاهد المحفورة بعمق في ذاكرة رولف، فهتفت تقول ببهجة عفوية:
- كم يبدو ذلك رائعاً! وكم يسعدني الذهاب الى هناك!
تخلى فوراً عن ذكرياته الحالمة ليرمقها بنظرة مزدرية ثم حيرها مرة اخرى حين قال ساخراً:
- قد تذهبين ذات يوم الى تلك الغابات، انما ليس قبل ان تستعدي نفسياً لتقدير روعتها الحقيقية. ان رؤياك، في الوقت الحاضر ليست واضحة تماماً، كما ان تعاطفك يفتقر الى التناغم المطلوب مع الطبيعة. ما زلت عديمة النضج يا كلير، ومشكلتك هذه ستحل نفسها بنفسها حينما تواتيك الجرأة على ان تخرجي من قوقعتك.

شعرت بانجراح كرامتها وكانت ستنخرط في صمت حرد لولا ان تصرفاً كهذا من شأنه ان يؤكد ادعاء رولف بانها لم تنضج بعد بما فيه الكفاية. وفي

اي حال، توفر عليها مجهود الكلام حين لاحت معالم كوخ وسط الغروب الساكن. حزرت نيته حالما داس على المكبح ثم اوقف السيارة ببطء على درب ضيقة عتيقة موازية للكوخ. كان خفيضاً ومتيناً كالأراضي الريفية حوله، ذا جدران مشيدة من حجارة المقالع المحلية وملصقة بقواطع باطونية بدت طبقاتها المطروشة باللون الابيض، سنة بعد سنة، كطبقات قالب من الحلوى.

كان قدم طرازه معززاً بسطح من القش السميك مثبت في شبكة وحبال مربوطة بشكل افقي الى اوتاد حجرية تبرز من الجدران وتتداخل مع اوتاد اخرى معلقة فوق الحافة لتشكل بنية شبكية متينة.

تكهنت بعبارة رولف التالية وهي تترجل بسرعة من السيارة وهيأت نفسها لموقف متحد. قال كما توقعت ان يقول:

- هل ندخل الكوخ؟

شمخت بذقنها واجابت باعتداد لتبين له سعة اطلاعها التاريخي:

- لماذا؟ ان داخله لن يدهشني فهو مجرد كوخ نموذجي للأكواخ المانكسية الأولى ويمثل النمط القديم للمستوطنات الزراعية، حيث كانت بضع عائلات، ست او اقل، تبني كل منها كوخاً فتشكل مجموعة زراعية تعرف باسم كلاشان بين سكان جبال اسكتلندا الغربية. كانت تلك العائلات تتعاون على زراعة الحنطة وتربية المواشي، ولزيادة المداخيل الضئيلة كان بعض الرجال يصطاد السمك، يقتلع حجارة البناء من الصخور، يغزل الاقمشة، يصلح الاحذية، يشتغل بالحدادة، ويفعل مطلق شيء يؤمن له بضعة قطع نحاسية اخرى. كانوا يعيشون في عالم خاص بهم، لا يتكلمون الا لغتهم الأم، اللغة المانكسية. ولا يختلطون بأي شخص من خارج مستوطنتهم المتينة الأواصر. وغالب الظن ان هذا الكوخ هو الوحيد الذي تبقى من تلك الاكواخ.

ادار رولف مفتاحاً عتيقاً في قفل الباب المزيت، وقال لها باقتضاب من وراء كتفه:

- اشكرك على هذه الخلاصة التي استعرضت بها تاريخ عائلتي.

وحين انفتح الباب الصغير المطلي بدهان اسود، خفض رأسه ودخل الكوخ بدون ان يدعوها الى اللحاق به. وفيما وقفت مترددة على العتبة

لمحت بصيص نور ما لبث ان تحول بالتدريج الى وهج ذهبي دافىء اضاء داخل الكوخ ثم امتد لينير العتبة حيث تقف.

اقترب منها وقال وهو يراقبها بامعان:

- اهلاً بك الى مدينة رامسي! هل احملك واعبر بك العتبة؟

وبدون ان ينتظر منها جواباً او رد فعل، حملها الى منتصف الغرفة بعد ان اغلق الباب بركلة من قدمه.

راحت تضرب جدار صدره بقبضتيها الغاضبتين وتهتف:

- انزلني الى الارض! انت لم تجبني على سؤالي بعد، لماذا اتيت بي الى هنا؟

وحين امتثل لطلبها بوجه متجهم واوقفها على ارضية الكوخ الحجرية احست برجفة في اوصالها اذ تصورت انها تستطيع استشعار الجليد يتسرب الى عظامها. وقف قبالتها بطوله الفارع، ينظر اليها بعينين واجمتين داكنتين، فيما كان المصباح الزيتي خلفه يطرح ظلالاً مستطيلة مخيفة على الجدران المطروشة بالكلس الابيض. في الاخير تكلم بصوت جامد لا عاطفة فيه:

- لقد بينت بوضوح، من خلال اختيارك لذلك النوع من الاحتفال الزواجي، انك تفضلين العيش في الماضي. لكنك كنت تلعبين يا كلير، كطفلة ترتدي ملابس امها، ولهذا السبب قررت ان الوقت قد حان لتشرعي في مواجهة الحقائق.

طوح ذراعه حوله وتابع بالجمود اياه:

- هنا في مدينة رامسي، يمكنك ان تنعمي بارواء عطشك الى ذكريات الماضي، وذلك بان تتعلمي التعامل مع الحياة كما كانت تعاش قبل قرن مضى... حين كان الحرمان يقضم ارواح الرجال بانياب حديدية ويحول العرائس الجميلات الى كهلات مغضنات قبل ان يبلغن سن الثلاثين! لكن بالرغم من ذلك، حافظت اولئك النسوة على حبهن وولائهن لازواجهن وشركاء حياتهن. هل يساعدك كلامي على ايجاد الجواب الذي تنشدينه يا كلير؟ هل بدأت تفهمين نوع الدرس الذي جعلني آتي بك الى هنا لأعلمك اياه؟

٧ - إثنان

حدقت كلير بتركيز الى قرص الساعة الكبيرة الملونة، والتي بدت لفرط قدمها انها قد اصبحت على مر السنين جزءاً اساسياً من الجدار. اخذت تكتكاتها المنتظمة تقرع جوانب ذهنها المذهول، وهي تحاول جاهدة ان تكبح خواطر جامحة تزين لها انها قد تفقد عقلها في اية لحظة، او ان الكوخ الكئيب المدقع الفقر والمكتظ بخليط من الأدوات العتيقة قد يصبح مسرحاً لكابوس رهيب.

اقتلعت بصرها من الساعة وركزته على خزانة مفتوحة تغطي جداراً بكامله لها رفوف مكتظة بأباريق لامعة، باحواض خزفية وردية وبطقم كامل من ادوات المائدة. ثم تأملت الموقد الضخم الذي يحتل جدار الكوخ المثلث الشكل. رأت كدسة من الرماد على المصطلى الحجري الرث والموازي لارضية الكوخ، وطنجرة حديدية ذات مقبض، معلقة على قضيب طويل مثبت في فتحة انبوب المدخنة. ثم نقلت بصرها الى مغزل قديم موضوع الى جوار الموقد، وتساءلت في نفسها، هل يتوقع منها بالفعل ان تستعمله؟ ان تغزل الخيطان بيديها وتحيك له كنزة خاصة يرتديها لصيد السمك؟

رفعت عينيها بتمهل الى السقف حيث الجانب السفلي لحزم القش المستطيلة المرصوفة باتقان ما بين حافة الغرفة واعلى الجدار. لم يعد لديها ذرة من الشك في ان هذا الكندي المانكسي المتغطرس كان يعني كل كلمة تلفظ بها. اجل، انه عازم على كسر شوكتها واذلالها، لكنها عازمة بالمقابل على عدم تمكينه من ذلك! وقررت ان الطريقة المثلى للدفاع عن نفسها هي ان

تتبنى موقفاً متحدياً اخرس، ان تتجاهل مراسيمه الاشتراعية الغريبة وتتحاشى التورط معه في اي جدال قد يحاول توريطها فيه.

كان طوال الوقت يوليها ظهره، معطياً اياها الوقت الكافي لتستوعب بيانه الصاعق. جذب انتباهها اشتعال عود ثقاب فرأته جاثياً امام الموقد يحاول ان يشعل كومة من عيدان الشجر الجافة واوراقاً مطوية. سمعته يهمهم راضياً حين هبت النار في العيدان، الا انها لم تسرع كفاية في تحاشي نظرته لحظة استدار بسرعة ليواجهها. قال لها بابتسامة مشجعة:

ـ متى اشتعلت النار تماماً سيبدو المكان اكثر انساً. هناك خزانة تحت طاولة الرفوف مليئة بالمواد الغذائية.

صمت قليلاً ثم اقترح بعفوية:

ـ ما رأيك ان تفحصي محتوياتها لتري ان كان بامكانك ان تهيئي لنا شيئاً للعشاء؟

انقضت على هذه الفرصة الذهبية لتظهر له رأيها فيه وفي اقتراحه، فسارت تتهادى عبر الغرفة الى حيث يوجد مقعد مستطيل من الخشب القاسي. جلست عليه بهدوء وحدقت امامها بوجه يدل تعبيره على استعلاء ممتعض.

لم يصعب على رولف ان يفسر تصرفها تفسيراً صحيحاً. شعرت بنظراته تنصب على محياها وتتفحصه بتفكير ثم التقطت اذنها نهاية صفير طويل كما لو انه مجرد همسة.

اولاها ظهره وقال وهو يعود الى الاهتمام بأمر النار:

ـ اذن هذه هي الطريقة التي قررت انتهاجها، الصمت الأخرس. أليس كذلك يا عزيزتي؟ حسن. . . لكن اذا لم تشتغلي فلن تأكلي، وفي النهاية سنرى ان كان بوسع الجوع ان يقوم اعوجاجك.

بدا غير آبه لصمتها وهو يعكف على اضرام النار بواسطة منفاخين عتيقين حتى جعلها الهواء تتوهج حمراء في الموقد الكبير. وقال لها مؤكداً:

ـ قريباً، سوف تكتسبين المهارة المطلوبة لتحضير وجبات الطعام بدون كل تلك التجهيزات الحديثة التي يحتويها المطبخ العصري.

كان بوسعها ان تعلمه بان علاقتها بالمطبخ خلال السنوات القليلة الماضية، لم تتعد التخطيط اليومي ومناقشة لوائح الطعام المطلوب مع مدبرة

منزلهم القديرة التي استخدمها والدها لمهارتها الفائقة في الاشراف على كل شيء، الا انها قاومت هذه الرغبة واستمرت تحدق امامها وهي تحاول جهدها الا تصغي اليه.

رأته يبتسم بمرح حين نهض من امام الموقد وسار الى الخزانة. بدأ يبحث بين اكوام المعلبات والاطعمة الملفوفة ثم فاجأها بقوله:

- كنت اعيش هنا في غضون الاسبوعين المنصرمين. ان غرف الفنادق المتشابهة سرعان ما تضايقني وتثير اعصابي، ولذا مججت البقاء في الفندق وانتقلت الى هنا في اول فرصة سنحت لي. العيش هنا كالعيش في احضان الطبيعة، وعودة الانسان الى الحياة البدائية تشكل تحدياً رائعاً يا كلير. انا واثق من انك ستستمتعين به شرط ان تتيحي لنفسك بعض المجال لذلك.

بدا جاداً كل الجد في كلامه! وتابع محاضرته قائلاً:

- هناك تحد في تعلم استعمال المهارات والخيال المطلوبين للتعامل مع ما قد يسميه البعض «مزعجات» الحياة البدائية.

استقام واقفاً ثم اغلق باب الخزانة بقدمه. حمل الاغراض التي اختارها وسار بها ليلقيها على الطاولة. صار ظهرها اليه فقال مخاطباً قفا رأسها المتكبر:

- لم هذا العناد يا كلير؟ لم لا تقررين ان تتعاوني معي بدل ان تقرري الحرد؟ ان احدى افضل الطرق الكفيلة بتطوير العلاقة بين شخصين هي ان يعملا معاً بانسجام وفي ظرف تتوفر فيه فرص عديدة للأخذ والعطاء، للمشاركة بالواجبات، لاكتشاف الاشياء التي تشعرهما باستمتاع متبادل وللانخراط في احاديث لطيفة مسلية. العيش بين احضان الطبيعة يزودهما بفرصة مثالية للتعرف الى مساوىء كل منهما وتقصيراته. كما انه في ظرف كهذا لن يصعب علينا ان نتعرف الى بعضنا بشكل حميم.

تقلصت عضلاتها وقد ارعبها التشدد المقصود الذي نطق به العبارة الأخيرة. لم يستطيع ان يخدعها بغصن الزيتون الذي عرضه عليها بدهاء. فسواء تعاونت معه ام لم تتعاون فالنتيجة ستكون واحدة. لكن اذاكان ما يزعمه صحيحاً، بأن العيش الخشن يساعد الشخص على تفهم نفسية الأخر، اذن سرعان ما سوف يكتشف بانها ليست من النوع الذي يستسلم بدون معركة!

ظلت متوترة ومتيقظة الحواس حين انخرط في صمت عميق لعلمها بانه كان يريدها ان تتجاوب فيما هي مصممة تماماً على عدم التجاوب. سمعت صوت سكين تقطع شيئاً وهو يحضر العشاء على الطاولة خلفها. اشتمت رائحة بصل شهية فتذكرت انها لم تأكل شيئاً يذكر طوال ذلك اليوم المفعم بالغم والجراح.

بدأ الابريق المعلق على القضيب يغلي فوق النار. ذهب رولف الى الموقد، ولما انحنى ليزيحه عن القضيب وليعلق مكانه الطنجرة الحديدية ذات المقبض، اضاء لهب النار جانب وجهه فتعمقت الفجوة تحت عظمة خده، وبدت عيناه السوداوان كما لو انهما تطلقان شرراً كثيباً.

هسهست الطنجرة حين وضع فيها مقدار ملعقة كبيرة من الدهن، وبعد لحظات اضاف لحمة مفرومة ثم البصل الذي قطعه شرائح رقيقة. تصاعدت من الوعاء رائحة شهية للغاية فأشاحت كلير بوجهها. سال لعابها وهو يحرك المزيج ويحمر اللحم والبصل في الدهن الحار، فعادت تراقبه بعينيها الجائعتين وتمتع بصرها برؤية حساء الفطر والحليب والفلفل ثم الشعيرية وهو يضيفها تباعاً الى الطنجرة قبل ان يحكم عليها الغطاء ويتركها لتنضج على مهل.

طرح جسمه على الكرسي الخشبي الهزاز الخالي من الوسائد ومد ساقيه امام النار ثم قال لها معتذراً:

- يؤسفني اني لا املك تلفزيوناً لأسليك به.

قطب حاجبيه، واردف:

- كان يجب ان آتي براديو صغير، لكنني اعترف بأن الفكرة لم تخطر لي اطلاقاً. هناك كتب وجرائد في مكان ما. هل تريدينني ان ابحث لك عنها، ما دمت تبدين عازفة عن التحدث الي؟

- لا تزعج نفسك. ارجوك.

اظهرت رفضها بجمود واحست ان الرائحة الشهية العابقة في الغرفة ستفقدها عقلها ولا ريب. وبعد قليل قالت بحدة:

- اني متعبة. هل يوجد مكان في هذا الجحر يمكنني ان احاول النوم فيه؟

فاجابها ساخراً:

- انت تعرفين تصميم الكوخ مثلما اعرفه تماماً، وبالتالي تدركين جيداً انه

لا توجد فيه سوى غرفة نوم واحدة، فكل تلك الأكواخ كانت نسخاً طبق الأصل عن بعضها.

فأضافت بصوت ثائر:

ـ وفيه ايضاً علية صغيرة!

ابتسم هازئاً فتوردت وجنتاها اذ ادركت انها قد اوقعت نفسها في المصيدة التي نصبها لها بذكاء.

وافقها قائلاً بصوت كسول:

ـ اجل، هناك علية، او بالأحرى مساحة صغيرة تحت السقف حيث كان اولاد المزارعين ينامون عادة.

التفت الى ساقيه الطويلتين واردف متشدقاً:

ـ كم انا محظوظ لأننا لن نضطر الى استعمالها.

ارغمت ركبتيها على عدم الارتجاف ونهضت واقفة لتتركه وقد قررت ان تتجاهل تعليقه كي تغيظه. ثم سألته بنبرة جافة:

ـ هل لديك ما يكفي من الشهامة لتأتي لي بحقائبي من السيارة ام سأضطر الى الاتيان بها بنفسي؟

قام عن الكرسي المزاز برشاقة مطواعة وقال:

ـ بالطبع. لن تفعلي انت ذلك. انا لا امانع في اداء هذه المهمة الصغيرة من اجل ان اؤمن الراحة لعروسي.

بدأت كلير ترتجف لحظة دخلت الغرفة المظلمة الصغيرة التي يشتمل اثاثها على خزانة بسيطة ذات ادراج، كرسي عتيق متزعزع، ثم سرير ضخم له اربعة قوائم، عليه شرشف واغطية وسائد حيكت محلياً، انما اصفر لونها بفعل الزمن. اما غطاؤه فمن الصوف الثقيل المبطن، ويثبت شكله انه قد حيك على مغزل يدوي في القرن الماضي.

سحبت الدرج الأعلى للخزانة الخشبية، وارتعدت حين وقع بصرها على قميص نوم من القطن، وقفت تحدق فيه وتتساءل عن المرأة التي هدرت ساعات مضنية وطويلة في تخييط حواشيه الكثيرة بقطب دقيقة، وفي تقطيب عروات ازراره باتقان جم، ثم تساءلت كلير اكثر من كل شيء، عن الخواطر التي راودت تلك المرأة عندما قررت ان تزين ياقة القميص بشريط رفيع من الدانتيل الناعم والمتناقض جداً مع خشونة القماش.

ـ ان حرمان الجسم ينسى بسهولة، شرط ان يكون القلب عامراً بالحب.

تكلم رولف خلفها بصوت رقيق، مبيناً قدرته العجيبة على قراءة افكارها.

استدارت على عقبيها بجفلة فارتطمت به وهو يخطو متقدماً الى المساحة الضيقة بين السرير والخزانة. سارع الى القاء الحقائب على الارض ومد يديه ليسندها، ثم ظل يمسك بها وهو يحدق فيها.

شعرت نفسها مسجونة داخل قبر مظلم. . . . فكرت ببيتها الأول الذي لا يبعد كثيراً عن هذا المكان، وفكرت بأبيها الذي ما يزال يحتفي بضيوفه ويبادلهم الاحاديث والمزاح. . . كذلك فكرت بالناس الآخرين. . . انهم الآن يقبعون آمنين في بيوتهم المريحة. تصورتهم يملأون ابريقاً من ماء الحنفية ويضعونه على موقد عصري ليغلي، يكبسون زراً صغيراً ليغمروا غرفة بالنور، على سجادات وثيرة ثم يصعدون بقناعة ورضا الى اسرة مريحة. هذه المشاهد الحقيقية بدت تبعد عنها آلاف الأميال وهي تحدق الى وجه الرجل المنحوت التقاطيع، الرجل الذي حملها ضياع عقلها على القبول به زوجاً. لماذا اقدمت على هذه الخطوة المجنونة؟ لقد اصابتها خديعة جوناثان بأذى مرير، بيد ان قلبها لم يتحطم، وفي الواقع لم تندهش كثيراً من تصرفه. لكنها تصورت آنذاك انه كان يحبها ويخلص لها، ثم حين اكتشفت انها وحيدة بلا نصير ولا يوجد شخص واحد يمكنها الاعتماد عليه، يئست من امرها وما عادت تبالي بمصيرها. لكن ذلك الشعور بدأ الآن يتلاشى وبدأت حقيقة حماقتها الرهيبة تتضح لها. وفي تلك اللحظة، وهي تحدق الى وجهه الساكن، ظهر الخوف واضحاً على محياها وكذلك الخيبة وذعرها الأعمى.

اطلق رولف نفساً طويلاً، وانزل يديه الى جنبيه وقال بصوت جامد تماماً وهو يبتعد عنها بسرعة:

ـ البسي ثياب النوم يا كلير. السرير مريح وقد هويته جيداً. حين تأوين الى الفراش سآتيك بشيء من الطعام.

احست بخشونة الأغطية حين اندست بينها لكنها لم تشعر بأية برودة تنبعث منها. كذلك الفراش المحشو بصوف الخراف وريش الأوز اشعرها

انها تضطجع داخل شرنقة دافئة. وهكذا، عندما غاصت اكثر في عمق الفراش واثقل النعاس جفنيها انتابها احساس بانها تطير في الفضاء محمولة على الف جناح صغير. كانت على وشك ان تستسلم للنوم عندما دخل رولف الغرفة وهو يحمل صينية عليها الأكلة التي طهاها بمهارة، وكوب من الحليب، وشمعة مشتعلة ومثبتة في قاعدة معدنية.

وضع الشمعة على سطح خزانة الادراج، واقترب منها حاملاً الصينية وقال يأمرها بصوت خشن:

ـ اجلسي لتتمكني من تناول الطعام. اليوم اكلت اقل مما يأكله عصفور صغير. ستشعرين بالنشاط حالما تملأين معدتك بطعامي!

لم تستطع ان تقاوم الرائحة الشهية المنبعثة من الطبق. استوت جالسة بلهفة ثم تذكرت فامسكت بحافة الغطاء وسترت به صدرها بعد ان ثبتته تحت ابطيها.

فأنبها رولف بحزن:

ـ لا تغطي جمالك هكذا. انك تمتلكين قواماً تحسدك عليه نساء عديدات فلماذا اذن لا تظهرينه وتتباهين بهذا الحظ الذي منحتك اياه الطبيعة؟ انسي تعاليم والدك المتزمتة يا عزيزتي.

وضع الصينية بلطف على ركبتيها، ثم اوقعها في حالة ارتباك شديد حين جلس مسترخياً على حافة السرير واردف قائلاً:

ـ حاولي ما استطعت ان تصدقي كلياً مع نفسك، ان تحرري افكارك من مجاملات الحياة اليومية كي تستطيعي بعد ذلك ان تنعمي بمشاعر حقيقية. لا احسبك نهمة المطامع يا امرأتي الجميلة، لكن لدي شعوراً اكيداً بانك متى تذوقت اول لقمة من الطبق فسرعان ما ستكتشفين بانك تملكين قدراً كبيراً من الشهية الطبيعية.

ولما ابتلعت اللقمة الأولى الشهية هتف بحبور:

ـ ارأيت؟ لم يكن ذلك صعباً كما تصورت، اليس كذلك؟

ثم القى نظرة على غطاء السرير بين يديها، واردف ساخراً:

ـ اذا ارخيت قبضتك عن درعك الواقي سوف يمكنك ان تطعمي نفسك. الا اذا كنت تحبين، ربما، ان اسهر على راحتك؟

وجدت نفسها امام خيار صعب، فهو لا يعتزم ان يتركها بمفردها،

ولذا، اما عليها ان تتخلى عن احتشامها او ان تكابد الجوع الذي زادت من حدته تلك الملعقة اليتيمة من الطعام. تلك الملعقة الواحدة احدثت فيها بهجة رائعة جعلتها تشعر بانها دافئة وقريرة ومدللة جداً! يا له من احساس لذيذ وغريب لا تريده ان يفارقها.

شددت قبضتها على حافة الغطاء ثم غمغمت وعيناها المتوسلتان تلاحقان الملعقة المغموسة في الطبق:

ـ ارجوك ان تبقى معي...

اجابها متنهداً:

ـ اذن ما زلت تصرين على حجب جمالك عني، اليس كذلك؟ حسن يا عزيزتي، هذه المرة فقط سأنزل عند رغبتك.

بدأت كلير تحس بالشبع قبل ان يفرغ الصحن من الطعام. ثم ثقل جفناها فادارت رأسها بعيداً وعادت تندس بين الاغطية لتفهم رولف بأنها لا تريد المزيد، فما كان منه الا ان اعاد الصحن الى الصينية. طقطق السرير عندما نهض واقفاً، فغمغمت شيئاً يدل على رضاها. اغرقت رأسها في الوسادة ثم اجفلت فجأة حين وخزها دبوس شعر رفيع في رأسها. ولظنها بأن رولف قد انصرف من الغرفة، رفعت يدها المتراخية لتنزع سائر الدبابيس من شعرها الأشقر، ثم تصلبت عضلاتها فجأة حين سمعته يقول بصوت منخفض انبعث من فوق رأسها مباشرة:

ـ دعيني اساعدك...

لعنت نفسها على غبائها. استوت تجلس بسرعة وقد نسيت في غمرة غضبها وجوب اخفاء كتفيها عن عينيه الناظرتين اليها ببسمة متألقة. كم كانت حمقاء وساذجة لتتيح له ان يخدع حواسها باهتمام مزيف وتغيير ذكي في الاسلوب جعلاها تتوهم انه كان ينوي بالفعل ان يتركها تنام في سلام!

ـ انا دائماً احصل على ما اريد...

اصداء كلماته الماضية هذه، طرقت جوانب ذهنها حين هبت تجلس مستقيمة الظهر، عاصفة الوجه، ووجدت ان وجهه الاسمر النحيل قريب منها اكثر بكثير مما تصورت.

قالت باختناق وغضب وظله الكبير يجثم على انفاسها:

ـ اشكرك. لا احتاج الى مساعدة.

لكنه تجاهل كلماتها كما توقعت. وبارتباك رجل يتعامل مع شيء غال ورقيق يتطلب عناية فائقة، اخذت اصابعه تجوس في شعرها الحريري وتنتزع الدبابيس الرفيعة واحداً اثر آخر. وغمغم قائلاً:

- من المؤكد انك تربيت منذ طفولتك على ان تسرحي شعرك كل ليلة قبل النوم.

احست فجأة بلسعات برد وخوف شديد وهي تلاحق حركاته وتراه يتناول فرشاة كانت قد تركتها على احدى حقائبها. رضخت له بصمت حين بدأ يسرح شعرها برقة وبطء. ابقت رأسها محنياً وعينيها مسبلتين وهي ترغم نفسها على الاحتفاظ بهدوء اعصابها. لكنها، شيئاً فشيئاً، بدأت تستشعر اصابعه القوية وهي تتلكأ وتحس تنفسه المنتظم.

وفي تلك اللحظة بدت غرفة النوم اصغر من ان تتسع لحضور هذا الرجل الذي تنبعث منه قوة رواد الغابات وعزمهم، ويستطيع ان يسلخ عنه رداء التمدن بالسهولة نفسها التي تسلخ بها الأفعى جلدها!

احست باصابع الذعر تعصر عنقها حين القى رولف الفرشاة جانباً وقبض على كتفيها بيديه الصلبتين. وبعد لحظات سألها بصوت اجش غريب النبرات بفعل عاطفته العميقة:

- لماذا تزوجتني يا كلير؟

اشتدت قبضة الذعر على عنقها وارغمتها على ان تعترف برعب شديد:

- لأنك لم تترك لي خياراً آخر! كيف يمكن ان يوجد سبب ثان وانا بالكاد اعرفك!

- هذا جواب خارج عن الموضوع.

جذبها صوبه بتمهل فقلصت عضلاتها لتقاوم قوته، وهتفت بيأس:

- بل انه جواب صحيح وواقعي، الا اذا كنت تتصور انه باستطاعتي ان اقع في حبك من النظرة الأولى.

فهمس بصوت خفيض:

- ولم لا؟

تخلت عن مقاومتها واعادت رأسها الى الوسادة فانحنى عليها واردف قائلاً:

- انا احببتك من النظرة الأولى.

وهمس لها بالفرنسية:

- اني احترق شوقاً اليك يا حب عمري!

لكنها قاومت نداءه الحار الذي يناشدها فيه ان تبادله عواطفه قبل ان تدفعه الى حافة الجنون.

وحين اطلق ضحكة عميقة من حلقه وقبض على رسغيها الاثنين بيده الحازمة ادركت انها باتت على شفا الهزيمة. وفي محاولة اخيرة يائسة، انتزعت احدى يديها من قبضته وصفعته ثم انشبت في وجهه اربعة اظافر حادة محدثة فيه اربعة جراح طويلة.

اندفع رأسه الى خلف في ضوء الشمعة الضئيل، وعلى الرغم من غضبها المستعر كالنار شعرت بخجل شديد وغثيان لمرأى الدم وهو ينز من الخدوش الجارية في اربعة خطوط مستقيمة من وجنته حتى ذقنه.

لم يحاول ايقاف الدم النازف وزمجر بها:

- ايتها القطة المانكسية!

فردت بحنق:

- ايها الهندي المتوحش!

كانت مرتاعة من هول فعلتها لكنها ادركت انه من الخطر اظهار رعبها خشية ان يستضعف موقفها.

ولما انطلقت يده كالرصاصة ليقبض على عنقها احست انها تخطت الحدود في اثارة اعصابه. واحست لأول مرة، بان الغضب الحاقد البارد الذي عاناه جوناثان منه قبلاً، يوجهه اليها الآن. قال من بين اسنانه:

- اقدر ان اتجاهل احتقارك لي شخصياً الا اني امتعض حتى الصميم من موقف الناس امثالك، الذين يشمخون بانوفهم على الآخرين، لا لسبب، الا لأنهم يختلفون عنهم. ولا حتى هؤلاء المنتمين الى عائلة فوكسديل المتعالية المتغطرسة، يمكنهم ان يستعلوا على الآخرين في كل زمان ومكان.

صمت قليلاً ليلتقط انفاسه ثم قال بغضب بارد مركز:

- اذا اردنا للحقد ان يزول يوماً من الأيام، فمن المهم جداً ان نتعلم التسامح والمحبة في علاقاتنا مع الآخرين.

هز اصبعه وتابع يقول مهدداً بقسوة:

- تذكري هذا جيداً يا كلير اذا ما خطر لك في المستقبل ان تحطي من قدر

هذا الشعب الذي تستطيع نساؤه ان يعلمنك كل ما تحتاجين الى معرفته حول الواجبات المفروضة على الزوجة تجاه زوجها!

خجلت من ولائه لاصدقائه الذين حقرتهم واستعملتهم كأداة لاثارة غضبه، فقالت بصوت مختنق:

ـ لقد ارغمت على زواج شرعي، لكني ارفض ان ارغم على التقيد به!

ـ لا عليك يا كلير، انك لن ترغمي على ذلك!

ثم اردف بنبرة ساحقة جعلت قلبها يقفز بين ضلوعها:

ـ اتودين معرفة السبب؟ حسن، سأخبرك. اذا حدثت معجزة ما وجعلت منك امرأة دافئة محبة، فلن اتخذك زوجة، الا اذا جئتني راكعة وتوسلت الي!

٨ـ البحر امرأة

وقفت كلير تحرك العصيدة بمغرفة كبيرة مصنوعة من قرن حيوان. لقد تمتعت بنوم هادىء عميق واستيقظت باكراً على أصوات طيور البحر الحادة وهي تحلق في الجو أسراباً. ومن خلال مربعات النافذة الزجاجية الصغيرة رأت رقعة من السماء كستارة زرقاء. ثم نهضت من الفراش وتمكنت بصعوبة من رفع النافذة حتى منتصفها كي تستنشق هواء الصباح المنعش العابق برائحة أعشاب البحر وكي تصغي الى موجان الحصى والاخشاب الصغيرة في أسفل الصخور، حيث تتوالى هجمات الأمواج على الشاطىء لتبعثر النفايات حيناً وتجرفها معها حيناً آخر.

بدا لها الطقس واعداً بالدفء فبحثت بين ثيابها واختارت بنطلوناً قطنياً وبلوزة نيلية بلا أكمام تحمل على صدرها الأيمن تطريزاً لمرساة بيضاء.

نهض رولف واقفاً بعد ان كان جاثياً امام الموقد يشعل النار واردف قائلاً:

ـ على ذكر الابتسام، لا اعتقد اني رأيتك تبتسمين مرة واحدة. اذا حصل ذلك سأعتبر ابتسامتك بداية طيبة لصداقتنا.

اجابت وهي تحس ارتباكاً داخلياً يناقض مظهرها المتماسك:

ـ اذا فعلت ذلك في المستقبل فلأني سأعتبر الابتسامة تلك أفضل طريقة لانهاء علاقة غير مرغوب فيها.

وهنا عبّر رولف عن انعدام حقده وضميره معاً حين تجاوز الموضوع الى موضوع آخر وسألها مبتسماً:

ـ لدي رغبة في تناول السمك للافطار، الا تودين ذلك أيضاً؟ اذا بدأت

في تحضير العصيدة سأذهب انا لاصطياد ما اقدر عليه.

ثم خرج متهادياً من الكوخ دون ان يتيح لها فرصة لمجادلته، فوقفت تصغي الى صوت خطاه المبتعدة، وانتظرت حتى اختفى صفيره المرح قبل ان تصل الى قرار معين وتتقدم مقطبة الجبين صوب الخزانة.

لم يترك لها اي خيار سوى ان تفضل التعاون معه على الموت جوعاً. كان في امكانها ان تهرب وذلك بأن تسير على قدميها لبضعة أميال حتى تصل الى أقرب طريق عامة، حيث تنتظر هناك مرور أحد السائقين القلائل الذين يتوغلون احياناً في غرب الجزيرة، وتطلب منه ايصالها الى بيتها. لكن تفكيرها في الشائعات المخيفة التي ستمتد حتماً حالما يقال انها هربت من عريسها بعد عدة ساعات من زفافها، جعلها تنبذ الخطة حفاظاً على كرامتها، كذلك ردعها عنها تفكيرها في رد فعل والدها السلبي واسئلته المحققة الصارمة.

تذكرت أيضاً ما قاله لها رولف، وان الصياد الخبير يدرس عن كثب عادات فريسته وطبيعتها الى حد يعرف معه بالضبط ما ستكون عليه ردود فعلها. اذن، هو بات قادراً على قراءة افكارها ككتاب مفتوح ولولا ذلك لما تركها بمفردها في الكوخ بكل ثقة واطمئنان.

بحثت بين اغراض الخزانة، وسرت كثيراً حين عثرت على علبة من عصيدة الشوفان السريعة التحضير والتي تحتاج فقط الى اضافة مقدار من الماء قبل طهوها. وبتركيز وانتباه شديدين، وضعت كمية الشوفان والماء المطلوبتين في وعاء ثقيل ومزجتها جيداً، ثم استعانت بقوتها ورفعت الوعاء على القضيب المعلق فوق نار الموقد.

احست بالعرق يسيل من بين كتفيها وهي تحرك الخليط بقوة واستمرار كي تحول دون التصاقه بقعر الوعاء. في الخارج كان الهواء عليلاً وليس هناك اي مجرى يدخل منه الى الكوخ وهكذا، مع اشتداد توقد النار وتصاعد البخار من الوعاء، تزايد الحر داخل الغرفة الصغيرة، وأخذ العرق يتصبب منها ويسيل كجداول رفيعة على وجهها وعنقها. وهنا قررت ان العصيدة قد نالت نصيبها من الطهو فبدأت تحاول بصعوبة وجهد ان ترفع مقبض الوعاء الثقيل عن القضيب. أحرقت الحرارة ذراعيها وكتفيها لما انحنت فوق الموقد، فاستعانت بقطعة قماش واقية لفتها حول مقبض

الوعاء وهيأت نفسها لعملية انزاله الثقيلة.

- أبعدي يديك عنه!

رن الأمر الصارم في سمعها فيما كانت على وشك تنفيذ المهمة.

عبر رولف أرضية الغرفة في ثلاث خطوات، ثم اقتلع الوعاء من على القضيب بسهولة حسدته عليها ووضعه الى جانب الموقد.

لاحت على شفتيه ابتسامة استحسان احدثت تأثيراً محيراً في نبضات قلبها وقال بجذل:

- تبدو العصيدة طيبة. هل تقدرين ان تحلبي عنزة؟

خضب السؤال وجنتيها بحمرة غضب اذ احست نفسها هدفاً لاحدى دعاباته الماكرة، وهتفت تجيب:

- بالطبع لا استطيع.

- في هذه الحال يجدر بي ان أعلمك ذلك، فالعصيدة بلا حليب لا تبعث على الشهية.

تحققت من جدية كلامه لما اخذ يدفعها في اتجاه الباب، فقالت متلعثمة:

- لكنني لا استطيع الاقدام على هكذا عمل . . . انا لا احب الماعز . . . انها . . . انها ذات رائحة كريهة!

ردّ عليها بحزم وهو يدفعها الى الخارج:

- لكن حليبها لذيذ المذاق، وبالطبع لا حاجة لتذكيرك بأن بائع الحليب لن يطرق بابنا في هذه المنطقة المنعزلة.

وفيما هو يقودها امامه مروراً بتخشيبات متنوعة كان الدجاج ينقد الحب بين أقدامها. وفي حقل مجاور كان في الماضي مكاناً لاعمال الحدادة، كان قطيع من الماعز يرعى العشب وهو من فصيلة قديمة تنتمي الى الجزيرة، صوفها داكن ويتميز ذكورها عن اناثها بقرونهم الطويلة المتشابكة.

كانت احدى العنزات معلقة بحبل مشدود الى وتد في احد الزوايا ولما اقتربا من مكانها رفعت رأسها لتتطلع اليهما بنظرة مستنفرة.

قال رولف يعرف عروسه الى العنزة وهو يحثها على التقدم واضعاً يده تحت كوعها:

- هذه مارغوت. لا تخافي منها فهي مسالمة تماماً. ابقي معها قليلاً وتوددي اليها حتى أعود بأدوات الحلب.

انتظرت كلير حتى تأكدت من ابتعاده وعدم استطاعته سماعها، فانحنت الى الامام قليلاً وقالت تناشد العنزة بعصبية:

- سوف تعذرينني على تقصيري أليس كذلك، يا مارغوت؟ فانا لم يسبق لي ان حلبت عنزة في حياتي. ستتأكدين من هذا عما قليل. ولو عاد الأمر الي، لما خطر لي ابداً ان احاول حلبك، لكن ذلك الرجل العنيد رامسي يعتقد اني في حاجة الى درس يعلمني التواضع. ولهذا السبب ستتعرضين الى بعض الأزعاج الذي لا يجب في اي حال ان تتعرض له سيدة مثلك. اذن، هل لك ان تتعاوني معي، من فضلك، وتساعديني على محو تلك الابتسامة الساخرة عن وجهه المخيف؟

ربما كانت تنتظر حدوث معجزة الا انه داخلها شعور اكيد بأن عيني مارغوت الحزينتين قد رقتا قليلاً، وبأنها هدلت أحد جفنيها كما لو انها تغمزها بطريقة تآمرية.

الا ان شجاعتها سرعان ما ضعفت لحظة رأت رولف يعود اليها بخطواته الواسعة حاملاً سطلاً وقطعة قماش وكرسياً منخفضاً خاصاً بالحلب له ثلاثة قوائم. خاطبها بصوت مرح:

- انا شخصياً أفضل الحلب بدون كرسي انما خير لك ان تستعيني به لتتمكني من الحلب بطريقة أفضل. وفي اي حال، لا يجب ان تشعري بخيبة اذا واجهت صعوبة بادىء الامر لأن الحيوانات لا تعطي حليبها الى شخص غريب بالسهولة نفسها التي تعطيها لشخص اعتادت عليه. والآن، راقبي حركاتي بانتباه.

جثم بين قوائم مارغوت الخلفية والأمامية ثم قال متابعاً شرحه لكلير:

- راعي ان تضغطي بابهامك وسبابتك بقوة أكبر من ضغط سائر الأصابع، وان تستعملي كلتا يديك في وقت واحد، وان تضغطي بالتناوب انما بسرعة كبيرة متتابعة كي يخرج الحليب وكأنه مسيل واحد متواصل.

استقام واقفاً ثم ربت على جنب العنزة المتململة ليهدىء من روعها وقال لزوجته:

- والآن، ابدأي المحاولة.

وضع الكرسي في المكان المناسب، وعندما جلست كلير عليه بعصبية وهي ترمق بحذر حوافر العنزة القلقة، وضع السطل بين ركبتيها كي يبين

لها الأسلوب العملي الذي يريدها ان تتبعه.

أمسكت انفاسها قرفاً من الرائحة الكريهة المنبعثة من جسم مارغوت، ثم تملكتها رغبة طاغية في ادهاش رولف فركزت ذهنها بقوة على تقليد حركاته. وعندما بدأ مسيل متواصل من الحليب يسقط في السطل كادت ان تسقط عن الكرسي من فرط الدهشة. أحست بانتصار رائع لم تعرف له من قبل مثيلاً، برقت عيناها الرماديتان بالحماسة وجعلت شفتها العليا ترتجف افتخاراً. وما ان عصرت نقطة الحليب الاخيرة حتى شعرت بتعب هائل في ظهرها وبخدر شديد في ركبتيها الممسكتين بالسطل. لكن سرعان ما زال كل ذلك وأحست بدلاً منه بألق مزهو يخترق جسمها كله حين رفع رولف السطل من امامها وساعدها على النهوض قائلاً:

- أحسنت! احسنت!

صفق لها باعجاب وهو يبدو مستغرباً بعض الشيء، ثم اغاظها حين اردف يفسر نجاحها مبتسماً:

- لا بد ان مارغوت شعرت بالجاذبية المتبادلة بينكما، فكلتاكما ذات طبيعة فائقة الحساسية.

لدى عودتها الى الكوخ رأت أربع سمكات سلمونية مرقطة موضوعة على الطاولة حيث تركها. انهمك فوراً في اخراج احشائها وتنظيفها ثم رشها بالطحين والملح ومددها في مقلاة كبيرة مدهونة بالزبدة وضعها على نار الموقد مباشرة.

بعد ان غسلت يديها بماء كان رولف قد سحبه في الصباح الباكر من البئر خارج الكوخ، سكبت العصيدة في طبقين ثم وضعت على الطاولة ابريقاً من الحليب الطازج وهي ما تزال تشعر بزهو الانتصار.

لم يخف على رولف سر تألقها فانتشرت على فمه ابتسامة عريضة وقال وهو يجلس الى المائدة قبالتها:

- في وقت لاحق، سأعلمك طريقة لحشو الدجاج وطهوه وطريقة لصنع العجين المخمر.

توقفت عن ايصال ملعقة العصيدة الى شفتيها لترفع حاجبيها بحيرة متسائلة، فاردف مفسراً:

- أقصد الخبز بالخميرة الذي كان جزءاً من غذاء الروّاد الرئيسي عندما

اقتحموا البراري الكندية. في تلك الأيام، لم تكن هناك معايير لصنع الطعام، وكان كل رجل يبتدع الوصفة الخاصة به والمناسبة لظروفه، لكن على الرغم من اختلاف طرق الصنع كانت كل المآكل لذيذة شهية، وليس هناك، يا عزيزتي، ما يعادل الخبز الساخن المحمر حين يؤكل بعد اخراجه من الفرن مباشرة.

- انت مصيب بكل تأكيد.

وافقته بايجاز وتهذيب كي لا تتيح له مجال الاستمرار في تعامله الودي معها، وقد أحست انها تتعرض للمرة الثانية لخطر الوقوع في شباك هذا الصياد الذي يعرف كيف يستخدم جاذبيته للايقاع بضحاياه. غرفت بالملعقة ما تبقى من العصيدة في طبقها ثم تابعت:

- خسارة انك ولدت في وقت متأخر فلم تستطع ان تلتحق بصفوف الرحّالة الذين تحمل لهم كل هذا الاعجاب. لا ريب انك كنت ستنسجم في مجال اصطياد الحيوانات البرّية لسلخ الجلود عن ظهورها.

لقد قصدت ان تظهر هزءها وازدراءها، الا انها لم تتصور ان وقع كلماتها سيكون عميقاً الى هذا الحد، اذ ان حنكه تقلص تماماً وبدت مفاصل اصابعه شديدة البياض وهو يقبض بيده على الملعقة. ادركت انها ضربت على عرق حسّاس فيه، فأخذت ترمقه بفضول، واردفت قائلة في برود:

- ما بك؟ أليس صحيحاً ان عائلة رامسي أسّست ثروتها عن طريق المتاجرة بالفراء؟

آلمته عبارتها فاختلجت عضلة في وجهه، واستغربت كلير عدم شعورها بأية شماتة، بل أحست بشيء من الخجل حين اجابها معترفاً بصوت خفيض النبرات:

- أجل، لقد تأسست بتلك الطريقة. لكني لا اشعر بأي فخر تجاه الدور الذي لعبته عائلتي في تحطيم حضارة هندية أنوفة في زمن السعي الى مزيد ومزيد من الفراء. كانت قبيلة الكيري عبارة عن أناس رحّل، يعيشون حياة صيادي الغابات الى ان تمّ تعرفهم الى تجار الفراء الأوائل الذين أغروهم بالاشتراك معهم في اصطياد الحيوانات على نطاق أوسع وذلك مقابل رشوتهم ببنادق وافسادهم بجميع الطرق.

وهنا اكفهر محياه الواجم وتابع قائلاً:

- وهكذا، بسبب الطلب المتزايد على قبعات فرو القندس من قبل الطبقات المخملية في لندن وباريس، والاقبال على معاطف الفرو والدثارات لتطرح على أكتاف النسوة الثريات المدللات، بسبب هذا، حرم ذلك الشعب الأبي من حضارته وكادت فصيلة معينة من الحيوانات ان تصل حدود الانقراض. ولحسن الحظ، سنّت آنذاك قوانين خاصة لحماية الحيوانات لكن المساعدة جاءت في وقت متأخر جداً مما حال دون انقاذ صيادي الجواميس وسكان الخيم الهندية وكل هؤلاء الخيّالة ورماة السهام ومحاربي القبائل الشجعان.

كانت نبرته مركزة وعيناه مظللتين بوجوم داكن، الا ان كلير ادركت برهبة انها لا ترى سوى جزء بسيط من الاحتقار الجليدي الذي يستشعره تجاه الرجال الشرهين الذين لا يتوانون عن فعل أي شيء مجرم وحقير في سبيل اشباع نهمهم الى امتلاك الذهب. وفجأة، وجدت من السهل عليها انّ تتفهم وتغفر معاملته القاسية لجوناثان وعدم احتماله لضعفه الخسيس. أحست بشيء من العصبية امام صمته الواجم، الا انها تشجعت في نفس الوقت لما لمحت فيه من حساسية غير متوقعة. فسألته بهدوء:

- أحسبك توقفت الآن عن المتاجرة بالفراء؟

فأجابها بهدوء مماثل:

- ذلك الفرع من أعمالنا توقف منذ سنوات طويلة حين بعنا امتيازه الى اناس آخرين وقد ارتأينا ان نقدم مال المبيع الى قبيلة الكيري كتعويض بسيط عن كل ما لحقهم من أضرار سابقة. وفي المقابل...

وهنا عاد الى استفزازاته المعتادة بفجائية أذهلتها وجعلت قلبها يقفز بين ضلوعها حين تابع يقول:

- في المقابل صرت أخاً لهم بالدم وعضو شرف في قبيلتهم. وخلال اجراء تلك المراسم قدموا لي هذا الرمز كهدية.

مد يده داخل قميصه وأخرج قلادة من الخزف الأزرق معلقة بطرف سير جلدي، ذات حافة منحوتة لولبية فيها قرصها البارز يرمز الى وعل ذي قرن ضخم متشعب. نقر عليه بظفر ابهامه وقال مفسراً:

- انه الوعل الأزرق الذي وهبوني اسمه بالاضافة الى فضائله التي من

المفروض اني أتحلّى بها.

ارهبها الموقف قليلاً فسألته بصوت خفيض:

ـ وما هي؟

ردّ بلطف وهو يتحدّاها ان تزيح بصرها عن عينيه:

ـ الشجاعة في القتال، وفي الحب.

تضرج خداها بحمرة قانية لكونه ذكّرها بالمشهد الذي حاولت طوال الصباح ان تمحوه من ذاكرتها، واشعرها بالامتعاض من رجوع الخفقات التي كبحتها لتوها ومن عودة ذلك التوق الداخلي الدفين الذي ما برح يغمرها من اللحظة الاولى... أحست الآن انها تكرهه، ولأسباب عدة، فهو قد نكد عليها حياتها وخلخل ميزانها، ثم أثار فيها عواطف كانت مدفونة... ثم عزّت نفسها بأنها تستطيع الآن على الأقل ان تشعر بالأمان، لا لسبب الا لأن رولف رامسي رجل يحترم الوعود التي يقطعها على نفسه، وهي استطاعت بشكل ما ان تصدقه كلياً.

قالت لتتهرب من متابعة الحديث:

ـ أظن السمك يحترق على النار.

فهب من مكانه راكضاً لينقذ السمك من أزيز المقلاة الحارقة ثم وضعه محمراً شهياً على طبق التقديم، وقال مثيراً فيها ارتباكاً خانقاً:

ـ كلي حصتك يا عزيزتي. سوف تحتاجين الى كل قواك لتستطيعي التغلب على الصراع الذي بدأ يحتدم في داخلك.

أحست بحرج ثائر حين انبأه توردها العميق بأنه جاء دوره هذه المرة ليصيب فيها وتراً حساساً. كان بوسعها ان تتقبل دعابته بروح رياضية، لكنها أحست بانها شفافة كالبلور الرقيق حين زجرها قائلاً بلطافة:

ـ ايتها المياه الجارية الصافية! كم يليق بك هذا الاسم يا صغيرتي، فتوقك الشديد الى التعاطف قد جعل منك انسانة معاقة عاطفياً في هذا العصر المتزمت.

ارادت ان تلسعه بجواب قارص، فهتفت خانقة وعيناها تعصفان بغيوم رمادية:

ـ كيف يمكنك ان تتظاهر حتى بمعرفة ذلك؟

فقال شارحاً لها رأيه بأناة:

ـ لأن الحب الحقيقي لا يعيش الا حين نشعر ان هناء الشخص الآخر وسعادته تعادلان في أهميتهما سعادتنا الشخصية وهناءنا. لذا، كيف يمكنك ان تفسري الطريقة الخاضعة التي تقبّل بها جوناثان قرارك بالزواج مني، هذا اذا لم أقل موافقته القلبية على قرارك؟ ثم كيف استطعت ان تتخذي قراراً كهذا، ما لم تسمعي صوتاً داخل نفسك يجادلك ويسخر من زعمك بأنك ترتعدين قرفاً مني وما لم يصر ذلك الصوت، ايتها الكاذبة الجبانة، على ان ما تزعمين من مشاعر هي عكس الحقيقة تماماً!

فنهضت ترتعد وتهتف:

ـ اني اكرهك! لا ادري أي امل لنا في الحصول على زواج ناجح ما دمنا نختلف في الرأي في كل أحاديثنا؟

وفجأة فقدت كلير سيطرتها على اعصابها المشدودة، وارادت ان تصرخ، ان تزعق وتهذي، ان تنشب اظافرها ثانية في خدوش وجهه التي لم تلتئم بعد... ضربت الارض بقدميها وجلجلت كما العاصفة.

ـ انت تريد، انت تظن، انت تعرف!! ماذا عني انا؟ الا يحق لي ان ابدي رأيي بهذا الزواج المهزلة؟

رفض ان يجاريها في انفعالها وان يرد على النار بالنار. بقي جالساً حيث هو وقال ببسمة هازئة ونظرة متوقدة:

ـ زواجنا مهزلة لأنك جعلته هكذا يا عزيزتي. ومع ذلك لست بقانط من نجاحه لأني ارى امامي امرأة جميلة تخرج بالتدريج من شرنقتها المتجمدة.

وبسرعة مذهلة قفز الى اليمين ووقف امامها. تسللت أشعة الشمس عبر الباب المفتوح فاذا بشعرها المجدول يلتمع كتاج ذهبي نادر. اخذ ذقنها بين اصبعيه وهمس وهو يزيح رأسها متأملاً وجهها الثائر:

ـ ما يزال لدينا أمل. انت غاضبة، مشعثة الشعر وفيك رائحة خفيفة التقطتها من العنزة، ومع ذلك لم أرك ابداً تبدين اكثر جمالاً واغراء وانسانية!

٩ـ الوعد

أعلنت بينهما هدنة قلقة . كان النهار قد انقضى في انسجام نسبي ، حيث ناضل كلاهما لأن يكون لطيفاً ومتعاوناً وهما يقتسمان الأعمال المتنوعة ويحافظان على احاديث فاترة عادية . لكن قدرتها على ابقاء مسافة معينة بينهما حكم عليها بالتلاشي حالما اختفت الشمس الغاربة وراء الافق . ولما دخلا الكوخ واغلقا بابه في وجه الغروب الزاحف، اضاء رولف المصباح فانبعث منه بركة من النور غمرت الطاولة وسقطت على الأرض مغطية اطراف الاثاث الثقيل المصفوف حول الجدران .

ارتجفت كثير اذ تراءت لها اشكال شبحية تجثم في الزوايا المعتمة . ظن رولف ان ارتجافها نتيجة لشعورها بالبرد فهب من مكانه فوراً وارتقى السلم الموصل الى العلية حيث قضى الليلة الفائتة ، وعاد يحمل كنزة عالية الياقة مصنوعة من الصوف السميك من النوع الذي يرتديه صيادو السمك اتقاء الرياح اللاسعة .

ألقى الكنزة على مقربة منها وقال :

ـ هيا، ارتديها . ثم اجلسي قرب النار بينما اجهز العشاء .

لم تجرؤ على الرفض . من العبث ان تتجاهل شعورها بحدوث انفجار وشيك فالجو حولها يبدو مشحوناً بانذارات خطر، وتكاد تسمعه يصرخ محذراً كلما اقتربا من بعضهما مع انها حاولت جاهدة طوال النهار ان تتفادى ذلك، وكانت تراعي ان تمر به جانباً في مساحات الغرفة الضيقة وتنكمش منه كانكماشها من شخص مصاب بالجذام .

ارتدت الكنزة الثقيلة وشعرت فوراً بدفء صوفها واشتمت فيها رائحة

زيتية خفيفة . تنهدت براحة وهي تتكور على الكرسي الهزاز المجاور لموقد النار وراحت تراقب رولف وهو يصف قطع اللحم، التي سلقها في وقت سابق، على شواية صنعها بنفسه من بعض الاسلاك المتينة . لقد اذهلها بالفعل بمهاراته اليدوية المختلفة . فمن قبل، كان قد صنع براداً طبيعياً وذلك بوضع المأكولات القابلة للعطب في صندوق خشبي ثبته بحجارة كبيرة في بقعة ظليلة على ضفة جدول قريب، لكن الابتكار الذي اعجبها اكثر من سواه كان الدوش الذي ابتدعه حيث أحدث ثقوباً في قعر وعاء كبير من البلاستيك، كان يحتفظ به في صندوق السيارة .

ولاستكمال الدوش جاء بشرشف من البلاستيك، كان يحتفظ به أيضاً في السيارة، وعلقه على الشجرة كستارة تؤمن الخصوصية للمستحم . كان بوسعه بالطبع ان لا يهتم بأمر الستارة الا انه راعى مشاعرها من هذه الناحية، الأمر الذي اشعرها نحوه بامتنان عميق .

غفت قليلاً بفعل اهتزاز الكرسي المنتظم وحرارة الكنزة السميكة، واستيقظت مجفلة لترى رولف يدفع الى حضنها بطبق من اللحم المشوي والبطاطا المشوية وهو يخاطبها مداعباً :

ـ هيا، استيقظي أيتها الأميرة الجميلة، وادفئي نفسك بهذا الطعام اللذيذ .

منذ زمن طويل لم تذق شيئاً أشهى من هذه اللحمة التي امسكتها باصابعها واخذت تنهشها بنهم وتركز عليها كحيوان جائع صغير حتى جردت العظام . ثم حولت اهتمامها الى رؤوس البطاطا المشوية حيث غرفتها اولاً من الوسط وتلذذت بمذاقها الناضج الممزوج بالزبدة ثم قحطت جوانبها الداخلية حتى لم يبق منها سوى قشورها الخاوية .

مدت يدها الى كوبها وجرعت جرعة كبيرة من الحليب البارد وغمغمت :

ـ كان عشاء رائعاً!

القى رولف نظرة ساخرة على جسمها النحيل المدثر بالكنزة الصوفية الضخمة وقال مداعباً :

ـ سوف تسمنين اذا استمريت على هذا المنوال . غداً، يجب ان تبدأ التغذي بمأكولات الارض لأن مخزون اللحم على وشك النفاد .

لم تنتبه الى كلامه لفرط شعورها بالشبع والدفء والراحة. كانت نيران الموقد تنعكس على وجنتيها ولم تجد في نفسها ذرة من النشاط تجعلها تضغط على الكرسي لتحمله على هزها. وهنا انطلق صوت رولف الحلو النبرات يرن في اجواء الغرفة الهادئة حين شرع يغني بالفرنسية بمصاحبة مزمار عتيق، الأمر الذي جعلها تشنف اذنيها لدى سماعها كلمات الأغنية...

الى الينبوع الصافي،
ذهبت اتنزه.
وجدت المياه رقراقة،
فاغتسلت فيها.
احبك منذ زمن بعيد
ولن انساك ما حييت.

كانت تصغي اليه مغمضة العينين ولما انتهى من الغناء رفعت اهدابها فاذا به يجلس قبالتها ولهب النيران ينعكس في عمق عينيه.

غلبها الفضول فسألته بخجل:

- ماذا تعني كلمات الأغنية، هل لك ان تترجمها لي؟

خيل اليها انه كان ينوي القيام بذلك دونما حاجة الى سؤالها، وأحست بسيطرته عليها حين اعتقل عينيها بنظرة مرقطة باللهب ومضى يترجم برقة:

- الى الينبوع الصافي. هذه الأغنية كانت محبوبة جداً من قبل الرحالة الأوائل. انها تروي قصة احد الرحالة الذي توقف عند ينبوع صاف، ولشدة اعجابه بجماله وعذوبة مائه قرر ان يستحم فيه. وفيما كان يجفف نفسه تحت شجرة سنديان سمع عندليباً يصدح في اعلى الشجرة، وكان صداحه طروباً بقدر ما كان قلب الشاب حزيناً لأنه فقد الفتاة التي يحبها. كانت قد طلبت اليه ان يأتيها بباقة ورد فرفض الامتثال لطلبها ثم ندم على رفضه بمرارة.

وهنا تعمق صوت رولف فجأة وهو يتابع:

- ندم بشدة لأنه ادرك لحظتها انه سيحبها دائماً ولن ينساها ابداً، وتمنى لو ان الورود التي سببت خسارته الفادحة تسقط في قعر المحيط وتبقى فيه الى الأبد.

استشعرت كلير الجو الحميم العميق الذي بدأ يطغى على الغرفة المتشحة بالظلال. ولكي تدرأ عنها اخطار هذا الجو الخفية، ردت تعلق على حكاية رولف بسخرية مقصودة:

- يظهر ان العناد السخيف صفة مميزة لدى شعبكم، فهذا الرحالة الثري والمغرور لم يكن ليعجز عن شراء باقة ورد لحبيبته، الا انه فضل ان يلبط الأرض بحوافره، لا لسبب الا ليؤكد لها انه وحده الذي يأمر وينهي.

- هل انت تقارنينني به، وتقصدين افهامي بان في حال رفضي سيكون الهجر مصيري والندم المرير على فقدان حبيبتي؟

نهض واقفاً فانطرح ظله الطويل على وجهها، ثم حين تقدم خطوة باتجاهها، قفزت من الكرسي وركضت تهرب منه الا انها، لفرط عجلتها، لم تنتبه الى البساط السميك المعقوف الذي يغطي الارضية بالعرض، فلم تشعر الا وهي تطير في الهواء وتسقط ارضاً عند باب الغرفة.

نهضت تقف على قدميها غير مبالية باتباع اسلوب اكثر حفظاً للكرامة، وفرت الى غرفة النوم وهي تضغط على اذنيها بكفيها كيلا تسمع ضحكة رولف المهينة.

في الصباح التالي لم تجرؤ على مغادرة الغرفة الا بعد ساعات من شروق الشمس. تعمدت التلكؤ وانتظرت حتى سمعته يسير مبتعداً صوب تخشيبة الحدادة حيث امضى وقتاً طويلاً، يوم امس، في ابتكار ادوات جديدة من اخرى عتيقة.

تذكرت سقطتها في الليلة الفائتة فاعتراها الخجل مجدداً، وأحست ان حرارة المذلة لن تخبو ابداً من وجنتيها. مشت بحذر الى ركن المطبخ واخذت تبحث في الخزانة عن طحين اذ خطر لها ان تصنع خبزاً بالخميرة على طريقة رولف لعل ذلك ينسيها خيبتها العميقة.

سمعت حفحفات الدجاج والديوك خارج باب الكوخ وفجأة علت اصواتها بحدة تخرق الآذان فخرجت تركض من الباب لتستطلع سبب ذعرها. رأتها تهرب خائفة هنا وهناك ما عدا ديك كان رولف يقبض على عنقه.

ابتسم لما رآها ثم قال وهو يومىء الى الطير المناضل بين يديه:

- اظنني نجحت في التقاط أسمن طير بينهم. سوف نحشوه بحصى

ساخنة وتطمره في حفرة، واذا تركناه ينضج على مهل سنتناول طيراً لذيذاً في المساء.

جن جنونها وصرخت حانقة:

- لن تفعل شيئاً كهذا ايها . . . ايها البربري القاسي! انه هنري، انزله الى الارض واياك ان تمس ريشة منه!

اعترت وجهه دهشة مثيرة للضحك الا انها لم تكن في مزاج قابل للضحك. قال يعترض باستغراب مرح:

- لكن العيش في المناطق النائية يتطلب من المرء ان يعتمد في غذائه على الطيور والاسماك والحيوانات. انها سنّة الطبيعة والبقاء.

اجابت باصرار:

- ما عدا الدجاج والديوك! لقد أحببتها واطلقت عليها اسماء متنوعة، واذا اضطررت الى أكل احدها سأشعر كأني من أكلة لحوم البشر!

ثم اهتز صوتها وفاضت من عينيها دموع كبيرة قوية لا سبيل الى ردها.

ادرك رولف فوراً انها تعاني لوعة حقيقية فلان قلبه وقال بصوت لطيف:

- لا عليك يا ذات القلب الرقيق. أعدك بأن لا أمسّها بأذى، شرط ان تأتي معي وتساعديني على اصطياد نوع آخر من الطيور او الحيوانات.

وافقت بتردد شديد على ان ترافقه الى الحقول المحيطة بالكوخ حيث اختار بقعاً معينة نصب فيها شراكه. جثيا بين الاعشاب العالية ينتظران اقتراب الفرائس فيما النسيم يداعب وجهيهما والشمس تلفحهما من خلف.

وهمس لها رولف:

- اذا رأيت حيواناً يرفع رأسه فاياك ان تأتي بحركة. ان رفع الرأس علامة أكيدة على قلقه.

بان القلق في عينيها هي وقالت باستعطاف:

- ارجو الا يتألموا لحظة تنطبق الشراك عليهم.

لم يفطن الى نظرتها المركزة عليه برعب هائل، وعاد يحدق امامه ويشنف اذنيه لسماع اية حركة غريبة، وهكذا ظل جاهلاً لما كان يدور في ذهنها.

تقلصت غريزياً عندما رأت حركة في العشب حيث نصب رولف الشراك. وسرعان ما لمحت خمسة اجسام بنية صغيرة الحجم ذات أذيال منفوشة تتقدم من منطقة الخطر، خمسة اجسام تراءت لخيالها المحموم كأم

تصحب معها أربعة اولاد عابثين. يا للكارثة! غلى الدم في عروقها وما عادت تفكر الا في انقاذهم من مصيرهم الاسود! قفزت واقفة على قدميها ثم صفقت يديها محذرة وصرخت بأعلى صوتها:

- ارجعوا! ارجوكم ان ترجعوا!

فقفز رولف بدوره وزعق وهو يهزها من كتفيها بغضب ثائر:

- كليرا ما الذي فعلته بحق الجحيم؟

وهنا ادهشت نفسها وادهشته حين فاضت عيناها بالدموع من جديد. ظل رولف لعدة لحظات يحدق اليها مكفهر الوجه ثم تأوه متندماً. احست عظامها تذوب في داخلها وهو يعتذر اليها قائلاً بحنان:

- سامحيني، لم اقصد ان اخاطبك بهذه الخشونة. لا تبكي يا ذات القلب الرقيق، ارجوك، لا تبكي.

كان يحميها بلطف كما لو انه اب حنون اكثر منه زوجاً، فاستجابت لقوة داخلية حثتها على ان تلقي رأسها على كتفه الحاني. شعرت بخفقات قلبه تتحد مع خفقاتها وتشكل نبضاً ثنائياً ملأ اذنيها بضجيج موسيقى مطرب. لم يشدد قبضته عليها وكأنه استشعر خوفها الشبيه بخوف ظبي صغير فراعى ألا يقوم بأية حركة حمقاء من شأنها ان تجفلها وتحملها على الفرار منه. وهكذا، لكونه ربيب الغابات وذا مراس في تصرفات الحيوانات المذعورة فقد قرر ان يستبدل العنف بالصبر والعطف اللذين يروضان المخلوقات الصغيرة ويجعلانها تتقبل الطعام من على اليد الممدودة اليها.

لذا لم يتكلم ولم يتحرك فيما كانت هي تتخبط في افكار وتساؤلات حائرة. انها لم تبك منذ طفولتها، فلماذا اذن، بكت مرتين في خلال ساعة واحدة؟ لماذا استطاع اعتذاره المعذب ان يضرب على اوتار قلبها بهذا الشكل، ولماذا استكانت اليه في حين انها لا ترغب الا في التخلص من رفقته؟

- كليرا!

بدا صوته ثابتاً للغاية الا انه حمل نبرة خفيفة جداً من الخيبة المنضبطة جعلتها تتجمد كقطعة ثلج. ولما أحنى رأسه قليلاً لم تعطه اية فرصة ليبرر حركته تلك بل قفزت مبتعدة عنه، وبعد ان رمقته بنظرة اتهامية، استدارت على عقبيها وبدأت تعدو عبر الحقول كأرنب مذعور.

بعد نصف ساعة، وفيما هي تجلس عند نافذة الكوخ تحدق ساهمة وتفكر في ذلك الفصل المحير، أفاقت فجأة على صوته المتسائل على عتبة الباب:

- أهي افكار جميلة التي تشغلك؟

تخضبت وجنتاها وتساءلت عن الاستنتاج الذي توصل اليه من شرودها الحالم ومن بسمتها الجوفاء وتحديقها الخاوي.

كان يسند احدى كتفيه الى اطار الباب ويدس يديه في جيبي بنطلونه الجينز الزري وقد طواه حتى ركبتيه مظهراً قدميه الحافيتين. اكتفت بالقاء نظرة سريعة عليه، فهي باتت تعي تماماً شكله الرياضي الفذ، وجاذبيته البادية في صدره القوي وكتفيه العريضتين...

وسألها بصوت خجول ادهشها:

- كنت اتساءل ان كنت تودين مرافقتي في نزهة بحرية؟

لم تشأ ان تظهر قبولها الملتهف فغمغمت بهدوء وبدون ان تدير اليه وجهها:

- سيكون ذلك ممتعاً. اما، هل لك ان تمهلني بضع دقائق ريثما ارتدي ثياباً مناسبة لرحلة كهذه؟

لم تتوقف لتحلل مشاعرها العاطفية وتمتمت بينها وبين نفسها، «انه يفضل الألوان الزاهية». وهكذا ازاحت جانباً ثيابها الغامقة والتقطت ثوباً صيفياً كانت قد ابتاعته في لحظة تحرر من القيود، ولكن حين جربته في البيت، قررت آنذاك ان لونه الاحمر الزاهي يجرد محياها من اللون، اما الآن فقد اضطرت الى تغيير رأيها لأن اللون الاحمر الزاهي بدا رائع الاندماج مع بشرتها التي اكتسبت سمرة جذابة خلال تعرضها لشمس الطبيعة في الايام الاخيرة.

احست بخجل وبشيء من الحرج حين تجرأت اخيراً على مغادرة غرفة النوم والتقدم الى حيث كان يقف في ركن المطبخ. هيأت نفسها لتزجره في حال ابدائه ملاحظة ساخرة في لباسها القصير، لكنها فوجئت ببرد فعله وتألمت منه، اذ ما ان وقع بصره عليها حتى تجهمت عيناه السوداوان وظهرت على فمه خطوط قاسية.

قال لها بتلك النبرة المشدودة التي رافقت صوته منذ ان افترض ان صراخه قد اخافها:

- انك تعرفين حتماً كيف تنزلين بالرجل اشد العقاب. احسبني أفضل التعامل مع صمتك العنيد السابق على التعامل مع هذا!

خرجا من الكوخ صامتين ليرتقيا الدرب المؤدي الى الصخور الشاهقة المتوهجة بالوزال والخلنج. كانا يخطوان بحذر بين الصدوع التي بدت كما لو انها نتجت عن يد مارد سدد اليها ضربة باترة، فشقت الصخور من اعلى الى اسفل محدثة هوات وفجوات خطرة. وفيما هما يسيران باحتراس على حفافي الصخور الاوسع من سواها، اخذ يدها في يده ولم يفلتها حتى اكملا هبوط الدرب المنحدر بقوة في اتجاه الشاطىء.

على أرضية الحصباء تحت الصخور كان هناك زورق صغير مرفوع على عربة اطلاق. تركها رولف ليهتم بأمر فك الحبال، فاخذت تنقب في الرمال وتبحث في البرك العميقة عن قنافذ البحر، وفجأة لاحت لها قطعة زمرد تتألق بين الحصى فانقضت عليها ترفعها ثم شعرت بالغباء حين اتضح لها انها مجرد قطعة من الزجاج الاخضر.

وسمعت رولف يقول من ورائها مقهقهاً:

- ارى انك ما تزالين تتعلقين بآمال طفولية في ايجاد كنز نادر خلفته سفينة شراعية قديمة.

استدارت اليه مذعورة، ولم تجد مفراً من الدفاع عن نفسها امام احتقاره الساخر فقالت بحماسة:

- ذلك جائز، فكلنا يعلم ان احدى سفن الاسطول الاسباني قد دمرت، انك لن تسارع الى السخرية مني اذا عثرت على بعض العملة الذهبية المتداولة آنذاك.

قهقه بحبور وبدا مسترخياً تماماً وهو يردف:

- الزورق جاهز. هيا نعبر به البحر الى الجزيرة.

وقبل ان ينزل الزورق الى الماء اصر على ان ترتدي سترة نجاة ثم شرح لها بايجاز طريقة تسيير الزورق وما يريدها ان تقوم به، فقال:

- الزوارق تحتاج عادة الى اثنين من البحارة. وبدلاً من العوارض الفولاذية للحفاظ على اتزانها توجد فيها عوارض خشبية صغيرة مهمتها تثبيت الزورق والحؤول دون انقلابه على جنبه لدى هبوب الرياح القوية. ومتى اصبحنا في عرض البحر علينا ان نتمسك بجوانب المركب لنحول

دون انقلابه.
قرأ في عينيها الرهبة فاردف مطمئناً:
ـ لا تخشي شيئاً، فليس في نيتي ان أعرضك للغرق.
اثارها مشهد الأمواج المزبدة والزورق يشق عباب المياه واستطابت هذه التجربة الجديدة. رولف، من ناحيته، لم يترك لها وقتاً لتشعر بالخوف اذ كان يقود الزورق بمهارة في اتجاه الريح، ويزعق آمراً اياها ان تنتقل من جهة الى اخرى عندما بدّل وجهة الزورق وبدأ يقوده عكس الريح. كانت منشغلة بتنفيذ اوامره، ولذا فوجئت تماماً حين برزت الجزيرة امامها وهي تبدو كجواد ضخم ينهض جسمه من البحر فيما انفه ما يزال غائصاً في الماء. وبالرغم من جهلها بالملاحة استطاعت ان تشهد لرولف بالمهارة الفائقة وهو يقود الزورق عبر درب مائي ضيق ومن ثم صوب الشاطىء الصخري.
انفرج فمه عن ابتسامة عريضة فلمعت اسنانه الناصعة البياض وقال وهو يمد لها ذراعيه ليرفعها الى الشاطىء:
ـ هل استمتعت برحلتك البحرية يا حبيبتي؟
تردّدت كلير قليلاً اذ داخلها ارتياب من وقفته المعتدّة ونبرته الفخورة اللتين احدثتها صراعه مع التيار... لقد تحدّى الطبيعة وانتصر عليها كما توقع. لا عجب، فرولف رامسي لا بد ان ينتصر دائماً على كل شيء!
استعرت عيناه وهمس قائلاً:
ـ كلير، متى ستعترفين بانك لم تخلقي الا بهدف ان تصبحي زوجتي؟
فقطعت خيط التوتر بقولها:
ـ اشك كثيراً في ان يوافقك جوناثان على هذه النظرية!
وللحظة، خيل اليها انه سيلقيها في البحر طعاماً للأسماك. لقد اثارت غضبه الشديد كعادتها كلما ذكرت اسم خطيبها السابق، لكنه نجح في ابتلاع رده الثائر وبدأ يغوص في الماء متجهم الوجه سائراً باتجاه الشاطىء.
وفيما انهمك في ربط الزورق ركضت ترتقي التل الموصل الى اعالي الصخور ثم اختفت في اغمار الزوال والخلنج. شعرت بالحرية كعصفور قد اطلق لتوه من القفص وجرت بلا توقف حتى غابت الجزيرة عن بصرها. ثم وقفت على حافة الصخور التي لها شكل ذراعين طويلتين تضمان كهفاً رملياً صغيراً. شعرت كما لو انها منبوذة على جزيرة مهجورة،

لا شيء فوقها وتحتها سوى البحر والسماء، فعادت ادراجها الى الشاطىء ثم تمددت عارقة مرهقة على سرير مريح من الرمال.
مرت ساعة على الأرجح قبل ان ترفع رأسها وتساءلت عن سبب ميلها الى الاغفاء في الأونة الاخيرة. استوت جالسة وهي تشعر بالانزعاج من كسلها ومن الحرارة والعرق. حدقت الى البحر فاسترعى انتباهها رأس اسود يهتز فوق الماء ثم رأت ذراعاً تلوّح لها، فادركت ان الرأس يخص رولف الذي كان يسبح بعبث واستمتاع واضحين. رمقته من بعيد بنظرة شزرة حسودة ثم سمعته يناديها قائلاً:
ـ تعالي واسبحي معي. هذه فرصة رائعة لا يجب ان تفوّت!
راقبته بارتياب حين بدأ يسبح في عرض البحر كما القمقمة وتاقت الى العمل بنصيحته الا انها بقيت تشك في نواياه الحقيقية. وحين اوغل بعيداً وبدا رأسه كنقطة سوداء في المحيط، تغلبت غيرتها منه على ظنونها وادهشت نفسها بمسارعتها الى الركض نحو الماء باستعجال مذعور لتغرق في الامواج الباردة المنعشة.
وللمرة الثانية تكشف لها شيء جديد، روعة السباحة بلا قيود. اخذت تسبح في دوائر وتستمتع بالبحر وهو يتماوج غامراً اياها، انما لم تغفل لحظة عن النظر حولها لتتأكد من ان رولف ما يزال بعيداً عنها. وبعد قليل، سهل عليها التصور بأن العالم قد خلا من الناس عداها... طغى عليها الاستمتاع فراحت تركل الموج بساقيها ثم تنقلب على ظهرها لتطفو كتمثال نصفي انتزعه البحر عن مقدمة سفينة، تمثال جميل من العاج له رأس جذاب وشعر ذهبي متماوج.
وعلى حين غرة شعرت بيد تسحب شعرها فادركت انها ما عادت لوحدها. لف رولف خصلاتها حول اصابعه وسحبها الى تحت، ثم افلتها لتعود مجدداً الى السطح.
التهبت عيناها بغضب غريب عن طباعها الدمثة وهتفت بصوت مختنق:
ـ كذاب! غشاش! كان يجب ان احزر بانك لا تنوي التزام وعدك.
قذف وجهه البني المبلل الى خلف واطلق ضحكة عالية ارعبتها. ضحكة واثقة منتشية يطلقها الصياد وهو ينقض على فريسته.

كان يمسك برأسها فوق الماء انما انتابها احساس مخيف بانها تغرق.
كانت تشتعل وترتعد برداً في نفس الوقت حين حملها بذراعيه وخرج بها من الماء. ابقت عينيها مطبقتين لكنها احست بدفء الرمل على ظهرها عندما انزلها بلطف الى الشاطىء.

همس لها بصوت اجش:

ـ القي سلاحك يا ملاكي. ازيلي حواجز الكبرياء واعترفي، يا عروسي الرائعة.

لم يكن ليعلم كم اقتربت وقتها من حدود الاستسلام. لكن صوتاً ما ذكرها في تلك اللحظة، انه ما لجأ الى الزواج منها الا كوسيلة للحصول على شيء صمم على امتلاكه. هذه الذكرى وحدها، جعلتها تتمسك بحافة التعقل... لقد قال لها، «وانا احصل دائماً على ما أريد...» لكن بعد انقضاء شهر العسل، اي مصير ستواجه، الاهمال؟ اللامبالاة؟ أو حتى الحقد بعينه؟

سنوات التربية الصارمة التي مكنتها من السيطرة على جسمها المرتجف فاذا بها تستلقي عند قدميه كتمثال رخامي بارد.

صوتها كان مجرد خيط رفيع لكنه حمل في طياته ازدراء شديداً جعل شفتيه تتقلصان ألماً:

ـ اني احتقرك يا رولف رامسي لأنك نكثت بكلمتك.

ابعد ذراعيه عنها بتمهل، وفي تلك اللحظة المؤثرة، لم يبد لها مهماً ان تكشف عواطفها امامه الى ذلك الحد. رمقها بوجوم مكلل بالحزن، وقال مناقضاً نفسه:

ـ انا ما كسرت كلمتي، بالنسبة الى وعدي بان لا اكرهك على القيام بواجباتك كزوجة فما ازال عند رأيي. لكني لم اعدك باني لن احاول ان اجعلك تغيرين رأيك.

١٠ - مهمة القلب

ما ان أطلت نهاية الاسبوع حتى اصبحت مارغوت صديقة مخلصة، وبدت متلهفة الى تقدير زيارات كلير المنتظمة وذلك بزيادة حليبها قليلاً، يوماً بعد يوم.

كانت كلير في طريقها الى حلب العنزة وهي تحمل السطل بيد والكرسي بيدها الأخرى. وعلى حين غرة، تسمرت في الأرض لدى رؤيتها جسماً صغيراً مكسواً بفراء بني كان يحاول بلا جدوى ان ينهض على قوائمه ويلحق بأمه النعجة وأخته التوأم اللتين سبقتاه وبدأتا تبتعدان عن مرمى بصره.

لقد أطلقت كلير على التوأمين اسمي بيتر وبولي. والآن، لدى مشاهدتها هذا المنظر، جثمت فوراً على ركبتيها واتضح لها ان بيتر يعاني مشكلة ما. كان الصغير يطلق ثغاءات استنجاد الا ان أمه استمرت في الابتعاد وكأنها تصم أذنيها عمداً عن استغاثته.

بدا هذا التصرف قاسياً للغاية بالنسبة الى كلير فاحمرّ وجهها غضباً وأخذت تواسي الحمل وتدعم قائمتيه الخلفيتين لتساعده على النهوض. وللحظة استطاع ان يرفع جسمه ويحتفظ بنوع من التوازن لكنه ما لبث ان انطرح على الأرض من جديد وتابع ثغاءه المقطّع لنياط القلب.

همست له بحنان:

ـ اوه بيتر، ما خطبك؟

مسدت رأسه المتدلي بلهفة ومررت اصابعها في صوفه البني الكثيف الذي ذكرها بفراء دب صغير. تضايقت من عجزها عن مساعدة الحيوان المصاب، فتلفتت حولها تبحث عن رولف. سمعت طرطقة معادن قريبة

فتركت السطل والكرسي على الأرض وركضت صوب تخشيبة الحدادة كان ينحني على سندان مثبت على جذع شجرة ضخم كان قد قطعه من قبل ووضعه في وسط ارضية التخشيبة. استدار رولف دون ان يلحظ قدومها ليلتقط مقبض كير عتيق موضوع الى جانب السندان، وحالما احدث مجرى هوائياً بواسطة الكير اخذت شرارات النار، المبيضة لفرط الحرارة، تتطاير من حوله، وأبرز الوهج المتزايد جداول العرق الصغيرة التي كانت تسيل على وجهه الأسمر المتألق.

وفكرت كلير في نفسها، قد يكون عفريتاً ينفخ في نار جهنم! ثم احست فوراً بالخجل، لأنه منذ ان قاما بتلك الرحلة البحرية وهو يعاملها بمنتهى اللطافة، يؤمن لها كل وسائل الراحة، يستبق كل رغباتها كأنه يسكن مشاعرها ويراعي ان لا تصدر منه أية كلمة او نظرة او حركة من شأنها ان تعكر صفو الهدنة الهشة التي قامت بينهما مؤخراً. تلفتت حولها بسرعة فلاحظت الجدران المغطاة بحلوات أحصنة وأدوات ومعدات من كل صنف وحجم، كذلك لحظت المقعد الخشبي الضخم الملصق بمسامير مستديرة الرؤوس، تغطيه أدوات مختلفة مبعثرة. تساءلت عما يحدوه الى قضاء ساعات وساعات في دكان الحدادة هذا وهو يطرق السندان كرجل مسكون، ولا يرجع الى الكوخ الا عند حلول الظلام وهو يبدو متعباً بل في غاية الارهاق احياناً.

- رولف!

نادته وقد اصبح سهلا عليها الآن ان تخاطبه باسمه الأول.

ومع انها نطقت الكلمة بهدوء الا انه رفع رأسه بقوة كما لو ان أذنيه المرهفتين قد اعتادتا على الانفعال بمجرد سماعها صوتها.

تقدمت منه قليلا وقالت باسترحام:

- اني قلقة على بيتر ومتأكدة من توعك صحته. هل يسمح لك وقتك بالقاء نظرة عليه؟

لم يبتسم لها هذه المرة فوفّر على قلبها خفقاناً مجنوناً يتتابع كلما اهداها ابتسامة حزينة. قال مجيباً اياها بلا انفعال:

- أعتقد ان بيتر واحد من اصدقائك ذوي القوائم الأربع، أليس كذلك؟ كم مرة حذرتك يا كلير من مغبة تدليلك لحيوانات المزارع؟ هناك

نسبة وفيات دائمة بين القطعان الصغيرة، ومعاملتك اياهم كأطفال رضع، تعرضك الى فواجع عاطفية يمكنك الاستغناء عنها.

وعلى الرغم من موعظته الزاجرة، ترك المطرقة والسندان وتناول قميصه المعلق على مسمار ثم ربطه حول عنقه بشكل لفاع.

وقالت تحذره باندفاع تلقائي:

- الا يجدر بك ان ترتديه اتقاء للفح الهواء؟

ثم أدركت ان نصيحتها بدت مفعمة بالاهتمام والقلق على صحته فشعرت بالحرج وأردفت بسرعة:

- آسفة، لقد نسيت انك تجعل من انكار الذات فضيلة تتحلى بها.

اطلق رولف نفساً حاداً كحافة سكين، وخيل اليها للحظة انه يستعد للسعها بجواب لاذع لكنه سرعان ما كبح جماح غضبه فتنفست الصعداء. وبعد قليل قال مؤنباً اياها بشيء من الفتور:

- انك تجعلينني ابدو كرجل يتلذذ باضطهاد الآخرين له. . . ربما انت محقة من هذه الناحية، فأنا لا أعتقد انه كان باستطاعة ألد اعدائي ان يخطط لايقاعي في وضع اسوأ من الوضع الذي زججت نفسي فيه من تلقاء نفسي. لا بد انه من الأسهل على الرجل بمراحل ان يصبح ناسكاً في اواخر حياته.

لم يبد على اصابعه أي أثر للتوتر حين مررها على جسم الحمل الذي وجداه مستلقياً على البقعة نفسها حيث تركته كلير. حاولت ان تساعد بيتر على النهوض لكن رولف قطب جبينه واعترض على حركتها بقوله:

- لا تلمسيه، اظن ان عرجه ناتج عن ضعف في عظامه، ولذا ان أقل مجهود يقوم به قد يؤدي الى حصول كسر في احد مفاصله. وحتى لو كان الأمر مجرد ضعف عظمي فيجب ان نعزله عن سائر القطيع ونهتم بتغذيته. انه مكتنز تماماً، بل سمين في الواقع، انما اظن انه يعاني من سوء التغذية. هل تعلمين اذا كانت اخته التوأم في حالة صحية مشابهة.

فأجابته محتدة:

- بالطبع ليست كذلك! ان بولي تتفجر صحة وحيوية!

استوضحها بصوت هازىء:

- بولي؟

قررت ان تتجاهل سخريته وردت تدافع عن صديقتها:

ـ انه الاسم الذي اطلقته على اخته. اما بالنسبة الى أمه فلا يمكنني ان افهم اي مبرر لقسوتها وعدم اكتراثها!

اجابها بضيق وقد بدا واضحاً انه يتذرع بالصبر الجميل:

ـ قد يسهل عليك فهم تصرفها اذا توقفت عن مطالبة الحيوانات بأن تتحلى بمزايا البشر، فهي بوسعها ان تشعر بالألم والضيق لكنها لا تقدر ان تفرح او تحزن او ان تشعر بالذنب على الاطلاق!

شمخت بأنفها العنيد وقالت حانقة:

ـ كلامك لا يقنعني لأن الحيوانات وحدها هي التي تستطيع ان تخبرنا حقيقة مشاعرها، والحين يبتدع الانسان وسيلة اتصال فعّالة، فاني افضل العمل بموجب قناعتي الخاصة.

حدجته بنظرة نكراء من فوق جسم الحمل الموجوع، فهز رولف كتفيه بصبر نافد، الا ان صوته بدا لطيفاً حين قال:

ـ لن أجادلك، لكن أرجوك ان تتذكري بأن الطبيعة تتبع طريقتها الخاصة في منع مملكة الحيوان من التكاثر. فالحيوان الذي يولد ضعيفاً من النادر ان يعيش، وأمه النعجة تعرف هذه الحقيقة وتتقبلها، وهذا هو السبب الذي جعلها تترك صغيرها يواجه مصيره، وتركز كل اهتمامها على توأمها الأقوى.

اتسعت عيناها الرماديتان رعباً وسألت برهبة:

ـ اتقصد ان بيتر سوف يموت؟

ـ هناك احتمال كبير بأن يحصل ذلك.

ثبت بصره في عينيها كما لو انه يحذرها من الاستسلام لعواطفها وتابع قائلاً:

ـ لكن اذا مات، فلن يحصل ذلك الا بعد ان نكون قد فعلنا كل شيء ممكن لانقاذ حياته. في الدرجة الأولى يجب ان نضعه في مكان دافىء، ومتى قمنا بذلك سنحاول اغراءه بالأكل. لقد فطمته امه جزئياً انما سنحاول تغذية هذا المسكين بشيء من الحليب الدافىء والمحلّى.

شهقت بصوت مختنق بالشفقة:

ـ اذن هيا ندخله الى الكوخ.

قطب مفكراً ثم أجاب:

ـ لست متأكداً من صواب هذه الفكرة فالحيوانات لا تنمو وتقوى الا في بيئاتها الخاصة. كنت أفكر في وسيلة أخرى لايوائه وهي ان ابني له قفصاً صغيراً دافئاً في مكان مسقوف من المزرعة.

فهتفت منفعلة:

ـ ولكن...

ثم سرعان ما ردت كلمات الجدل العنيفة الى حلقها وقررت اللجوء الى الاسترحام فأردفت تقول:

ـ قد يحتاج الى عناية في اثناء الليل وسيكون من الأسهل علينا وجوده قريباً منا. ألا تظن ذلك؟

احست بارتياح شديد حين بدا رولف ميالا الى قبول حجتها، فقال بهدوء:

ـ حسن، سنحاول استضافته لليلة واحدة فقط، وفي حال ظهور دلائل تحسّن، ننقله في الصباح الى مكانه الآخر خارج الكوخ.

وعندما لملم الحمل المريض وحمله بلطف بين ذراعيه، سبقته راكضة لتضيف حطباً الى نار الموقد. وحين دخل به الى الكوخ كانت تركع على حرام فرشته على الأرض وهي على أهبة الاستعداد لاستقبال الحمل المريض والاعتناء به. اخذت تمسد فراءه بمحبة وتهمس له بأرق كلمات التطمين وهي تنتظر بلهفة ريثما حضّر له رولف مزيجاً من الماء والحليب والسكّر، ثم سكبه في فنجان شاي دفأه على النار. في هذا الوقت كان بيتر قد توقف عن الثغاء وتكور على نفسه كقوس من الشقاء المرتعد، فيما عيناه مغمضتان واحدى قوائمه مطوية تحت ذقنه الهش.

ولو عاد الأمر الى كلير لما طاوعها قلبها على ايقاظه، لكن رولف بدا ثابت القلب واليدين كما توقعت. ركع الى جانب بيتر من الناحية اليمنى، ضغط على أنفه بابهامه وسبابته، ادخل اصبعاً آخر في فمه ثم رفع حافة الفنجان وأمالها قليلا بحيث بدأ الحليب ينساب ببطء الى حلقه. لكن بيتر اخذ يسعل مما جعل معظم السائل الابيض يندلق من جانب فمه.

فكّر رولف قليلا ثم قال:

ـ سنحاول ان نسقيه الحليب بملعقة صغيرة. هل لك ان تأتيني بواحدة

من الخزانة؟

لكن هذه الطريقة فشلت ايضا كسابقتها، وبدا الحمل ضعيفاً جداً الى حد عجزه عن ابتلاع أي شيء.

فقالت كلير بلهفة:

ـ دعني أحاول.

أزاحت رولف جانباً ثم غطست اصبعها في الحليب ونقلته الى فم بيتر. وللحظة، لم يظهر اي تجاوب وفيما كانت على وشك التراجع وسحب اصبعها، أحست ببداية مصّة خفيفة. أطلقت صرخة ابتهاج وعادت تكرر العملية ذاتها، وهذه المرة استجاب مريضها الصغير بمصة أقوى بقليل من الأولى.

استدارت تنظر الى رولف بعينين متألقتين وهتفت:

ـ هذه الطريقة نجحت! هل يعني ذلك انه سيتحسن؟

بدا حائراً في اعطائها الجواب الصحيح، ثم قال بحذر شديد ومراوغة:

ـ ان الاستمرار في هذا الاسلوب من التغذية سوف يتطلب أربعاً وعشرين ساعة من كل يوم، اي عملا مجهداً متواصلا، وحتى لو استطعت ان تستمري فليس هناك أي ضمان لامكانية شفائه، بالرغم من تصميمك على انهاك قواك في هذه المحاولة الجبارة. حاولي ان تتعقلي يا كلير، ودعيني اجرب معه الطريقة التقليدية قبل ان تورطي نفسك في مجهود مرهق بلا ضرورة.

فهتفت وصوتها يرن قوياً كالفولاذ:

ـ كلا! ان طريقتك تزعجه كثيراً، وفي أي حال، لا أوافقك رأيك على ان المحاولة غير ضرورية... انظر كيف يمص الحليب بقوة! اني مقتنعة بأنه في مثل هذا الوقت من يوم غد، سيطرأ عليه تحسن ملحوظ، واذا كانت هذه الطريقة كفيلة بمساعدته فسوف ننفذها حتماً!

كانت مهمة بطيئة ومنهكة تلك التي أخذتها على عاتقها. مرت ساعة اثر ساعة وبدأ ظهرها يؤلمها اذ بقيت طوال الوقت جاثية على ركبتيها امام الحمل، كما بدأت تحس خدراً في اصبعها. ومع ذلك، وبدون ان تفكر لحظة في انزعاجها الخاص استمرت في تغذيته وقد قررت ان لا تستسلم للخيبة بالرغم من ان مستوى كمية الحليب في الفنجان أظهر دلالة بسيطة

على الانخفاض.

كان رولف يحوم في أرجاء الغرفة الصغيرة لكنه لم يحاول التدخل وبدا انه يراعي رغبتها في معالجة الحمل بمفردها كي تثبت لنفسها انها قادرة على استكمال المهمة الصعبة التي أخذتها على عاتقها.

قالت تطمئن نفسها وهي تنحني على مريضها بوجه جدي كئيب:

ـ ليست القضية قضية اثبات بأني على صواب، انما سيسرني ان استطيع اقناع رولف بأني لست عديمة النفع الى الحد الذي يتصوره. كل انسان لديه موهبة خاصة. صحيح اني لا أتقن صنع الخبز المخمر كما يجب واني احرق اللحم في احيان كثيرة وأظهر بلادة كبيرة في استعمال اواني الطهو مما جعل رولف يتكفل بمفرده بمهمة الطبخ، لكني مقتنعة بقدرتي على شفاء بيتر من مرضه، واذا نجحت في ذلك سوف احظى بمكافأة اضافية تتمثل في حصولي على شيء من احترامه لصبري ومقدرتي.

وغني عن القول ان عنايتها بالحمل لم يكن لتقل رقة وحناناً حتى لو لم تكن هناك مكافأة تحفزها على ذلك.

اشعل رولف القناديل، فرفعت اليه وجهاً متورداً مستغرباً وقد صعب عليها التصديق بأن كل تلك الساعات قد انقضت دون ان تشعر بمرورها مع انها كانت تستشعر الثواني من خلال كل خفقة ضعيفة في قلب بيتر ومن خلال انفاسه اللاهثة بوهن شديد.

انطرح عليها ظل رولف وقال وهو ينحني عليها ليساعدها على النهوض:

ـ اتركيه الآن. لم يعد يحتاج الغذاء كاحتياجه الى النوم الذي هو اكثر العلاجات قدرة على الشفاء.

تقبلت الحكمة في كلامه وأطاعته بلا جدل. رحبت بمساعدته لها على الوقوف حيث استطاعت ان تتمطى وتريح قليلا مفاصلها المرهقة. كان ما يزال يسندها باسترخاء فتطلعت الى عينيه وقالت مبتسمة:

ـ دويني مووار.

نطقت الكلمتين بلغة بلدها دونما تفكير، واستطاعت، بطريقة غير مقصودة اطلاقاً، ان تفقده تماسكه العاطفي، اذ بدا مبهوراً ومنجذب البصر الى خديها المتوهجين كوردة، الى عينيها الرماديتين المتألقتين كسديم

فجري متماوج يعلن شروق الشمس والى فمها الناعم المرتجف بحيرة اذ يوجه اليه لأول مرة، ابتسامة خاصة به. قفزت عضلة في فكه دلت على انفعاله العميق وسألها بصوت تراوح بين اللين والحدة:

ـ هل انت تشتمينني؟

فأطلقت ضحكة عفوية رقراقة لم توقظ الحمل الهاجع، الا انها احدثت اغرب التأثير في رولف الذي لم يكن ليتجمد في مكانه اكثر لو انه رأى جنيات الجزيرة انفسهن يدخلن الكوخ في طابور، اولئك الجنيات الاسطوريات اللواتي يرتدين ثياباً حمراء وخضراء ويرقصن في الأودية المنعزلة ويسبحن في مياه الشلالات، واللواتي يقال انهن يستطعن ايضا صعق أي شخص يغضبهن من مجرد نظرة، لكن بالمقابل، يستطعن، اذا ابتسمن لشخص يرضين عنه، ان يجعلنه عبداً لهن مدى الحياة!

لم تفطن كلير الى وقع ابتسامتها الهائل الذي اصاب حواسه بالدوار، وقالت تفسر عبارتها بشيء من الخجل:

ـ دويني مووار تعني في لغة المانكس «الرجل الضخم». لقد قفزت الكلمتان الى ذهني لما رأيت ظلك الكبير على الجدار.

قادها في اتجاه الطاولة بلمسة خفيفة فضحت اهتمامه الشديد بالحفاظ على سلامة الخيط الجديد الذي شدهما الى بعضهما قليلا، وقال وهو يحثها باحتراس على الكلام:

ـ لا شك ان هناك فجوات عديدة في معلوماتي عن الجزيرة وسكانها، وأنت تبدين أقدر الجميع على ملء تلك الفجوات. بالنسبة الى الخراف مثلا، هل لك ان تخبريني شيئاً عن خصائصها؟

وهنا خطر لها ان أي شيء تستطيع ان تتذكره، قد يساعد في شفاء بيتر وكانت الخاطرة كافية لأن تحث ذهنها على التفكير والاستذكار. غسلت يديها وجلست الى المائدة. انتظرته حتى سكب الطعام ثم قالت مقطبة الجبين:

ـ كل ما أعرفه عن هذه الخراف انها من سلالة قديمة أخذت تتضاءل على مر السنين، وتعيش اليوم باعداد قليلة جداً على أرض الجزيرة. انها تمتاز بسرعة حركتها ورشاقتها الفائقة، وعلى الأخص بصوفها البني الداكن الذي كان يقارن بالسعوط الاسباني وزيت اللوز المر. اسمها باللغة

المانكسية لوتان وهو مشتق من كلمتين تعنيان الفأر البني، وهذه الكلمة تستعمل عادة لوصف أي شيء بني يضرب الى السمرة الشاحبة. ان المؤرخين أنفسهم لا يمتلكون معلومات دقيقة عن أصلها وتاريخ نسلها، وهي من المفروض ان تكون شديدة الشبه بخراف ايسلاندا وجزر الفيرو وهيبريديز في غربي اسكتلندا. بعض المؤرخين يميل الى الاعتقاد بأن القراصنة الاسكندينافيين ادخلوها الى الجزيرة في القرن التاسع، وبعض آخر يزعم انها قد تكون متحدرة من قطعان سلتية محضة. ولذا، يمكنك ان تفهم الآن سبب تصميمنا على عدم السماح لنسلها بأن ينقرض بالتدريج.

انطرح ظل قاتم على وجه رولف حين أرسل نظرة حادة في اتجاه الحمل النائم. ثم زفر بتمهل وقال:

ـ اذن هذا يفسر كل شيء! كان يجب ان أحزر.

استوضحته باهتمام:

ـ تحزر ماذا؟ أتقصد مرض بيتر؟ هل تظن انك تعرف سبب علته؟

ـ لقد أعطيتني دليلا الى علته.

قرأت في تعبيره عاطفة قريبة من الشفقة فأحست قلبها يهوي الى ركبتيها. وتابع رولف يقول:

ـ انه يظهر كل اعراض الكساح الذي يتسبب من التغذي من أرض تعاني نقصاً في عناصر غذائية معينة، انما ضرورية لانجاب أطفال معافين. يقال ان الخضار والأطعمة التي تنبت في أراض مستنقعية محروثة تغطيها طبقة من الكلس، من شأنها ان تسبب تفاقم هذا المرض، بالاضافة الى استمرار التناسل ضمن الفصيلة ذاتها.

تغضن جبينها وهي تسأل مفكرة:

ـ الكساح؟ أليس هو نفس المرض الذي كان يصيب الأطفال؟

ـ اجل، انه كساح الأطفال، وما زال يفتك بالصغار لغاية اليوم بين طبقات المجتمع الفقيرة. اطفال القبائل الهندية يعانون منه بكثرة حتى الآن.

فقالت تلح بلهفة:

ـ لكنه قابل للشفاء، بالتأكيد؟

ـ اجل، انما في حال عدم حدوث مضاعفات. اعتقد انه بالامكان

ايقاف المرض باعطاء المريض كميات وافرة من الدهنيات، بتوفير الراحة المطلقة له وبتعريضه للنور القوي، اما لأشعة الشمس الطبيعية او الأخرى الاصطناعية. كذلك الهواء النقي يساعد المريض. لكن سعال الحمل الجاف لا يعجبني، ولذا أفضّل ان يبقى داخل الكوخ هذه الليلة على الأقل.

حالما انتهيا من غسل أطباق العشاء وتوضيب المكان، انصرفا الى مراقبة الحمل والاهتمام بأمره. كانت كلير تهرع الى مواساته والجثو امامه كلما سمعته يسعل ورأت بطنه المنتفخ يتحرك. حاول رولف اقناعها بألف وسيلة بوجوب الايواء الى فراشها فلم يفلح. وفي الأخير قال يداهنها:

ـ حتى لو استلقيت بكامل ثيابك سوف ترتاحين قليلا. لا تقلقي، اعدك بأن اوقظك حالما أرى أي تغيّر في حالته.

لكنها أصرّت بعناد:

ـ بيتر مريضي أنا، وسوف أسهر الى جانبه طوال الليل.

ضاق ذرعاً بعنادها فكف عن اقناعها. فتح الخزانة وأخرج من قعرها زجاجة من زيت الكبد، واستطاع بجهد ان يسكب مقدار ملعقتين صغيرتين منه في حلق بيتر. ثم ركّز وضع القنديل بحيث شكّل نوره هالة من الضوء على رأس المريض قبل ان يضع مزيداً من الحطب في الموقد ليؤمن حرارة منتظمة تدفىء الكوخ سحابة الليل.

نظر الى كلير التي كانت تجلس على الأرض بتوتر ولا تزيح بصرها عن الحمل النائم ثم مد لها يده وقال يقترح بعفوية مصطنعة:

ـ تعالي نجلس على الأريكة الخشبية. اذا كنا سنبقى هنا حتى الصباح فيجدر بنا ان نؤمن لنفسينا راحة نسبية.

ادهشته بقبولها السريع لاقتراحه، وجاءت تسير مثقلة الجفنين لتجلس الى جانبه على المقعد الخشبي المستطيل الخالي من الوسائد. كذلك لم تحاول ازاحة ذراعه التي ألقاها حول كتفيها او مقاومة يده التي جذبت رأسها وركزته ليرتاح على فجوة كتفه. طوال النهار كان الطقس يهدد بالانفجار، وما ان بدأت قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة حتى اقتربت منه وأطلقت تنهداً عبّر عن قناعتها. كانت الغرفة صامتة تماماً الا من تكتكات الساعة الأثرية المتواصلة، فشعرت ان الغرفة تغص بأشباح طيبة وسعيدة.

وغمغمت تقول:

ـ حدثني عن الناس الذين سكنوا هذا الكوخ. هل كانوا سعداء بحسب اعتقادك؟

ـ ما هي السعادة؟ انها شيء يصعب تحديده. فالذي يعتبره البعض حظاً سعيداً، من الجائز ان يعتبره البعض الآخر مصيبة وشقاء. لكني سأجيب سؤالك. تبعاً لما رواه أحفاد آنغس رامسي، فانه ورث هذا الكوخ عن والده، وكان يميل الى المهارات اليدوية ويهتم بصنع المنحوتات الخشبية، كالتي ترينها حولك، وبتصميم قبعات وسلال وشباك من حبال القش اكثر من اهتمامه بالزراعة. كذلك ترك لعائلته عدة مفكرات صغيرة كان يدوّن على صفحاتها ان أمه تقوم بأعمال ثقيلة داخل البيت الى جانب مساهمتها في عمل الحقول، وان جيرانهم كانوا اناساً عطوفين متفهمين يساعدون بعضهم في زرع البذور والحصاد وخزن الحنطة. كانوا يتحلقون في الشتاء حول مواقد النار حيث يتبادلون الأحاديث، ويستذكرون الحكايات القديمة، ومنها التي تتحدث عن الشبح الذي كان يرتاد الكهوف، وتلك التي تتحدث عن المردة الأقوياء الذين يقال انهم تحدروا من رجال الاسطول الاسباني. كان الشبان والشابات يكونون حلقاتهم الخاصة في بيت آخر حيث يغنون ويرقصون ويختارون الرفيقة المناسبة، او العكس بالعكس، ليبدأوا فترات الخطوبة. وهكذا ترين انه من الصعب تحديد الظروف التي تزود المرء بالسعادة، فمع ان آنغس رامسي اصبح فيما بعد رجلا ثرياً، الا ان حنينه الشديد الى الأيام الخوالي يبدو واضحاً في كل صفحة من مفكراته.

استكانت كلير الى انسجامها الذي حل مكان التنافر وقالت بصوت حالم:

ـ من المؤسف اننا لا نقدر قيمة السعادة الا بعد ان نفقدها.

ـ ذلك يتوقف على وعينا لأنفسنا.

شعر بأهمية الموضوع فقرر خوضه بحذر شديد كما لو انه آنية بلورية من المحتمل ان تتحطم شر تحطم اذا ما تعرضت لضغط زائد. ولذا تابع يقول باحتراس:

ـ من الواضح انك تملكين احساساً أمومياً عميقاً، سيظل يحول دون

حصولك على السعادة الى ان تجدي شيئاً يجعلك تغدقين عليه حبك الأمومي هذا.

وفي الأخير، ركز بصره على السقف وقال بشجاعة:

ـ انك تحتاجين طفلا يا كلير.

هيأ نفسه لهجمتها المزدرية المحتومة ثم خفض بصره بأمل حين بقيت تتكور ساكنة في دائرة ذراعيه. كانت أهدابها الشقراء تظلل خديها المتوردين، وصدرها يعلو ويهبط متزامناً مع نفسها المنتظم. اما فمها المكتنز فكان يبتسم راضياً وكأن هناك احلاماً جميلة تتراءى لعينيها السادرتين في نوم ثقيل عميق...

١١ - يوم الفاجعة

ما ان استيقظت وفتحت عينيها حتى وقع بصرها على قلادة الوعل الازرق، الملاصقة تقريباً لخدها الدافىء. كان ذهنها ما يزال ملبداً، فعجزت للحظة عن ايجاد مبرر لاستلقائها داخل المطبخ المكفن بظلال قاتمة ثم سمعت صوتاً يطرق باب ضميرها، صوت نوبة من السعال الضعيف اعقبتها شهقات لاهثة مثيرة للشفقة تخرج من صدر حيوان مختنق الانفاس.

هبت جالسة في مكانها وهتفت وهي تحدج وجه رولف الواجم بنظرة اتهامية متأججة:

ـ لماذا لم توقظني كما وعدت؟

ـ لم تكن هناك جدوى من ذلك.

بدا صوته متوتراً مشدود الأوتار مما جعلها تشك في صحة تصرفاته الموحية بانه عديم الاحساس تجاه المخلوقات الضعيفة المستنجدة. ولسبب لم تستطع تفسيره، احست بشيء من الحرمان عندما سحب ذراعه من حول كتفيها ونهض واقفاً على قدميه. استشعرت مزاجه القاتم ونفاد صبره فتحول غضبها الى اهتمام وهي تقول بارتباك:

ـ اعتذر لكوني تصرفت بانانية.

لم ينظر ناحيتها بتاتاً. تقدم الى حيث الموقد ليعلق مقبض الابريق على القضيب وسألها بصوت متقلص:

ـ بأي شكل تصرفت بانانية؟

ردت بهدوء:

ـ لكوني استسلمت للنوم واهملت العناية بمريضي، ولأني لبيت

احتياجاتي الخاصة على حساب احتياجاتك.

رفع رأسه بحدة ليحدق اليها بنظرة قاتمة ثاقبة وقال:

- كنت بدأت احسب انك غافلة تماماً عن احتياجات الآخر وانك تصورينني كواحد من تلك الابتكارات الآلية الحديثة التي تستخدم في النهار ثم توضع في الليل في احدى الزوايا المناسبة لها.

ذهلت من التبدل المفاجيء الذي طرأ على موقفه واربكتها الطريقة التي بدأ يحوم بها في ارجاء الغرفة. فسألته بقلب واجف:

- أليست احتياجات الرجل الاساسية كاحتياجات المرأة تماماً؟ كلانا يحتاج النوم والدفء والراحة.

وهنا اجتاحتها موجة عطف فاردفت تقترح باندفاع:

- ما رأيك ان تنام على السرير فيما اتابع انا العناية بيتر؟ لا اعتقد انك استطعت الاسترخاء خلال الليالي التي قضيتها في العلية وليس بينك وبين ارضيتها الخشبية سوى كيس النوم الرقيق.

رأته يتهيأ لمجادلتها فتابعت تقول بسرعة ومرح:

- لا تحاول انكار هذا الواقع، فلقد سمعتك مراراً تدور حائراً في ارجاء الكوخ وتخرج منه عند الفجر لتهبط الى شاطيء البحر.

خرج من بين الظلال ووقف امامها يحدجها بنظرات مستعرة. اطلقت شهقة مفاجئة اذ شعرت بانفاسها تقطع كما لو بسكين صيد حادة. هتف بحنق:

- يا الهي! كم انت سطحية التفهم والتفكير! الآن، وفي مقابل استعمالك لي كوسادة وثيرة مريحة، تتيحين لي شرف احتلال السرير بمفردي، فيما تبقين انت هنا لتغدقي حنانك على حيوان اعجم لا يستطيع ان يفهم او ان يقدر نعمة حبك! انك تسخرين كل قواك لتخفيف عذابه في حين تغفلين عن عذابي لأن هذا الاغفال يخدم مآربك الخاصة! اعتقد انك تحبين الحيوانات لأنها لا تفرض عليك اية مطالب. كلير، هل تعجزين عن الاحساس بعمق، الى حد يجعلك تنكمشين على نفسك حين تلمسين عمق الاحاسيس عند الآخرين؟

وبدون ان يتحرك اقتلعها من البقعة التي كانت مسمرة فيها ثم تحداها بصوت اجش:

- تعالي معي لنتأكد من ذلك، وليذهب وعدي السابق الى الجحيم، فأنا افضل مئة مرة ان اصبح والداً لطفلك!

احست بخجل من الانسحار الهائل الذي يثيره فيها كلما فقد السيطرة على عواطفه ومن رغبتها الملحة في اكتشاف ما يقع خلف هذه المرحلة التعذيبية التي وصلاها في علاقتهما. شعرت للحظة بتلك الشجاعة المتهورة التي تدفع سباحاً متحمساً الى غزو بحار مجهولة، وفي اللحظة التالية احست بذلك الجبن العصبي الذي يستشعره سابح مبتديء يستعد للغطس في حوض سباحة، فتساءلت اذا كانت لديها الكفاءة الكفاية واذا كانت ستأذى او ستقتل اذا غطست!

همس في اذنها بعذوبة:

- انت نقية كالثلج المذوب، منعشة كغدير الجبل، ساحرة كشلال يهوي الى الاعماق الهاجعة الغامضة! بالله عليك يا كلير، كفي عن تعذيبي!

وتابع يهمس:

- كم تعذبت في الساعات الماضية لانك كنت قريبة جداً وبعيدة جداً في نفس الوقت. كانت هناك حرب داخلية تنهش كياني، معركة عنيفة دارت رحاها بين رغبة مجنونة كانت تدفعني وبين ضمير حي كان يلح علي بالمحافظة على وعدي.

وفجأة ارتفع صوته الخفيض يقول باصرار اجش:

- ارفقي بي يا كلير كرفقك باي حيوان معذب... انقذيني من شقائي!

ان العواطف التي تبادلتها مع جوناثان لم تكن ابداً شبيهة بهذه، فقد كان يشعرها بوله بها كما لو انها اميرة شامخة تحت عرش بهي. لكنها مع رولف تنتابها مشاعر جامحة لا تعرف لها تفسيراً.

اضعف عزيمتها اقناعه القوي واستغل ضعفها.

- رولف!

كانت قد اكتشفت لتوها طبيعة مشاعره هذه حين تناهى اليها صوت طغى على ضجيج قلبها الخافق، صرخة كئيبة تنطلق من حيوان يتعذب. رولف سمعها ايضاً ولا ريب، الا انها حين حاولت الابتعاد هتف ساخطاً:

- يا الهي! كيف يمكنك ان تتركيني في هذه اللحظة؟

بعد قليل تكررت الصرخة وكانت عبارة عن ثغاء مستنجد اعقبته نوبة

من السعال فاجتاح كلير ندم لاسع وذعر شديد زوداها بالقوة الكافية للذهاب اليه.

جثت امام الحمل مرتجفة الأوصال وعلى كتفيها غيمة من الشعر الاشقر. اخذت تمسد فراءه وتواسيه برقة ثم قفزت بانفعال عاطفي محموم وهتفت:

- انا اكيدة ان حالته تزداد سوءاً.

لكن تعليقها ذهب سدى اذ اغرقه صوت انصفاق الباب ووقع خطوات غاضبة حملت صاحبها الى حضن الليل البهيم.

ارتجفت متأثرة برد فعلها الخانق، واستمرت تواسي المريض لكنها استطاعت بعد قليل ان تشكر رولف على بعد نظره لوضعه الابريق على النار والذي اصبح الآن يغلي ويملأ جو الغرفة ببخار مفيد تمكن الحمل بواسطته من التنفس بشيء من السهولة. ظلت جاثية على ركبتيها لفترة خالتها ساعات طويلة وهي تحاول عبثاً ان تغري بيتر بامتصاص قطرات من الزيت او الحليب. ثم تلاحقت نوبات سعاله بشكل قوي ولما هدأت نسبياً، رأت كلير مادة غريبة تندلق من جانب فمه ولا علاقة لها بتاتاً بما تناوله سابقاً من حليب وزيت. في الأخير استسلم لنوم ثقيل فجلست قربه تحضن صدرها بذراعيها وانصرفت الى تنظيم افكارها والى تشريح عواطفها المتضاربة بكل ما تملك من صدق ذاتي، هذه العواطف التي تحولت الآن الى نبض شامل منتظم والتي لن تحتاج الا لسماع صوت رولف او وقع خطواته كي تتلقى الاشارة لمواصلة المعركة، حيث يعود قلبها الى التمزق من جديد.

شعرت بارهاق جسمها وعواطفها فغمغمت لنفسها:

وهل هذا هو الحب؟ هل يعقل ان يكون تلك العاطفة التي تلهب السنة العشاق باحلى الكلمات وتوحي للشعراء بأجمل الاشعار؟ لكن الحب يجب ان يكون فرحاً وليس تكفيراً عن خطيئة، يجب ان يوحد الحبيبين بدل ان يفرق شملهما.

وحتى في غمرة تخبطها وتساؤلاتها الحائرة ادركت انه قد اتيح لها ان تلمح الجنة، ذلك المكان الحاوي كل ما هو جميل ومفرح والخالي من كل عذاب وألم.

كبتت رغبة في الانتحاب ونهضت واقفة. اضافت وقوداً جديداً الى النار. ثم جرت الكرسي الهزاز وقربته قدر الامكان من حيث يضطجع بيتر وانطرحت على خشبه القاسي. عزمت على ان لا تدع النعاس يتسرب الى عينيها المرهقتين فجلست مستقيمة الظهر وركزت احدى قدميها على الارض كي يبقى الكرسي في حركة اهتزاز متواصلة. لكن رأسها ما لبث ان انكفأ على كتفها بالتدريج، وتوقف الكرسي عن الحركة. طغى عليها النوم للمرة الثانية واستغرقت فيه بعمق ففاتها ان ترى اصابع الفجر وهي تتسلل الى زوايا المطبخ المعتمة، وان تسمع صرير الباب حين فتحه رولف باحتراس.

استفاقت مجفلة على صوت اللحم المقفقف في المقلاة وعلى ضجيج الاطباق لما شرع رولف يهيء مائدة الفطور. كانت اشعة الشمس تخترق زجاج النافذة وتتراقص على الصحون المزينة برسومات الصفصاف، وعلى الابريق المائل المليء حتى حافته بحليب طازج كثيف، على الملاعق المصنوعة من قرون الحيوانات وعلى زهرية من الورود البرية التي تنمو بوفرة بين شقوق الصخور المطلة على البحر من علو شاهق. وتساءلت كلير بين الصحو والغفو، هل هي هدية ترمز الى السلام، ام انها اعتذار صامت من رولف على ثورته العصبية الغريبة عن طباعه؟ ربما هو صدق العبرة الكامنة في الأغنية الفرنسية التي يحب انشادها، اغنية الرحالة الذي ندم بعمق ومرارة على خسارته لحبيبته بسبب عناده ورفضه اهداءها الورود التي طلبتها منه؟

وقال رولف بلهجة جافة كذبت نظريتها الوليدة بأنه كان نادماً على تصرفه:

- اذا استعجلت ستجدين وقتاً لأخذ دوش قبل الافطار.

احتبس النفس في حلقها بفعل كلماته الباردة كالجليد. ثم تذكرت بيتر فهبت تجلس مستقيمة. ادارت رأسها تنظر في اتجاه البقعة التي تركته فيها وظلت تحدق بذهول الى المساحة الخالية حيث كان هناك حرام يضطجع عليه جسم الحمل المكتنز والبني الصوف.

استدارت تحدق الى رولف وسألته شاهقة:

- اين بيتر؟

بدا تعبيره كقناع سميك ورد بايجاز:
- وضعته خارج الكوخ.

كان ما يزال متضايقاً منها، لكن حتى هذه الحقيقة لم تمنعها من اخفاء موجة الامتنان التي جرفتها لدى سماعها كلماته. اهدته ابتسامة جميلة هادئة عكست فرحها في عينيها الرماديتين الرقيقتين كسديم البحر. وقالت بعدما تنهدت بارتياح من عمق قلبها:

- لقد شفي من مرضه! كنت اشعر بطريقة ما انه سيبرأ وانه لن يموت لفرط ما يملك من براءة وجمال يأسران القلب. سألقي عليه نظرة سريعة قبل الافطار.

كان يغمرها شعور مجنح بالانتصار، ولذا لم تفهم لماذا بقي فمه صارماً وبقيت عيناه واجمتين. قال بخواء:

- انه ينعم بالأمان، لنتركه هكذا يا كلير.

وكأنما تكهن بعزمها على مجادلته فأشاح عنها، وقال وهو يركز اهتمامه على المقلاة:

- سيكون الطعام جاهزاً بعد خمس دقائق. انه وقت كاف. لأن تستحمي وتلبسي، اذا استعجلت قليلاً.

صوته الملحاح شجعها على الاستعجال فركضت الى غرفة النوم حيث تناولت منشفة وثياباً نظيفة، هرولت بخطوات خفيفة فرحة الى خارج الكوخ وصوب الدوش الذي ابتكره رولف.

كان الماء داخل الوعاء قد سحب من بئر باردة عميقة لكن حين وخزت إبره المثلجة جلدها الدافىء، لم يخطر لها ابداً ان تتحسر على الحمام الفخم الذي خلفته وراءها، الحمام ذي الارضية المطاطية بلون الزبدة والمغطس العاجي ذي الحنفيتين المصممتين على شكل دلفين واللتين يتدفق منهما الماء بلا انقطاع، والرفوف المكتظة بالبودرة والكريمات المطرية، والسجادة السميكة الخضراء كمعشب الربيع التي كانت تغوص فيها حتى كاحليها، وكدسات المناشف الدافئة المخملية. كل تلك الاشياء كانت تعتبرها تحصيل حاصل، لكن حين مدت يدها تبحث عن السدادات المطاطية لتقفل ثقوب الوعاء البلاستيكي احست بانتعاش هانىء يملأ مسامها ويغمرها بالعافية والسعادة.

بعد ان جففت جسمها بالمنشفة الخشنة ارتدت ثياباً نظيفة اعقبتها ببنطلون قطني ازرق وبقميص من نفس اللون. لفت المنشفة حول رأسها بشكل عمامة على اساس ان تجلس خارج الكوخ بعد انتهاء الفطور لتجففه تحت اشعة الشمس وتمشطه.

وما ان دخلت المطبخ حتى بدأ يسكب الطعام ثم قال بجفاف:

- من المفروض ان تبدي كقنفذ في هذا اللباس، لكنك تستطيعين الاحتفاظ بمظهرك الوقور بطريقة غريبة لا تفسر. يقولون اننا لا نأتي معنا بشيء الى هذا العالم ولا نأخذ معنا اي شيء منه، لكنني اشعر يا عزيزتي، انك حين اطللت على العالم بدا واضحاً من اللحظة الأولى انك ولدت من عائلة فخورة جداً وموهوبة.

رمقت صحنها بشهية عارمة واجابت تداعبه:

- أما قالوا ايضاً ان الرجل الذي يفتخر بأمجاد جدوده يشبه نبتة البطاطا التي يختفي جزؤها الافضل تحت الأرض؟ وهذا يدل على اني اما نصف ميتة أو نصف حية، فإلى أي من الحالتين انتمي حسب رأيك؟

ان قدرتها على ان تمازحه بهذه السهولة كان دليلاً على مقدار التقدم الذي احرزاه في علاقتهما. لكن بدل ان تلقى منه التجاوب الذي توقعته – نظرة الاعجاب المتألقة، الابتسامة المائلة، الحاجب الأسود المرفوع – بدل ذلك اختلج محياه بطريقة محيرة.

ثم دل تعبيره على تصميم معين ارغم على اتخاذه، فأزاح طعامه جانباً لينحني عبر الطاولة وليقول بجفاف وهو يحدجها بنظرة مركزة:

- في احدى المرات، وكنت آنذاك اعمل كحارس للغابة، وصلت الى بركة يعيش فيها عدد من القنادس. تقدمت منها بمنتهى الهدوء، لكن لا بد اني فعلت عكس ذلك في الواقع اذ سمعت فجأة اشارة القندس التي تحذر رفاقه من الخطر، وهي صوت يفرقع كخردق البندقية ويحدثه القندس بخبط ذيله الثقيل في الماء، وبعد ذلك غطست بقية القنادس الخائفة تحت الماء لتحتمي في القعر.

وضعت كلير شوكتها على الطبق لتوليه كل اهتمامها، اذ احست غريزياً انه لم يقصد تسليتها بهذا الحديث، بل كان ينوي تبليغها رسالة معينة يريدها ان تفهمها جيداً.

بدا ذهنه شارداً وراء الذكريات، الا ان نظرة عينيه انبأتها انه كان يعيش كابوساً قديماً. ومع ذلك تابع في هدوء:

- ابتعدت عن البركة وتقدمت الى فسحة في الغابة، ومن هناك رأيتها صافية ساكنة، كمرآة فضية تنعكس على سطحها اشجار الصنوبر العالية. كان الهدوء شاملاً، فلا نسمة هواء تحرك الاغصان، ولا ماء يخرخر، وحتى الطيور اخلدت الى السكون. ثم لمحت حركة بين اغصان الاشجار التي تحف بالبركة، ولما دنوت منها رأيت قندساً صغيراً، قد هوجم على ما يبدو من قبل ثعلب مائي. كان القندس ينزف دماً ويتكور على نفسه وهو في دور الاحتضار.

تردد قليلاً وبدا انه يجد صعوبة في ايجاد الكلمات المناسبة لاكمال القصة ثم تابع بنبرة تقرب الى التوسل:

- الموت الفوري يعتبر رحمة اذا قورن بساعات العذاب الطويلة يا كلير. ففي عالم الحيوان يناضل الجميع بشراسة من اجل البقاء، وحيث كل نوع منه، مهما كان سريع العدو او قوياً او داهية، يعيش في خوف دائم من شراسة الأقوى منه، وحتى حشرات اليرقة التي تنمو في برك الماء تذهب طعماً للضفادع والضفادع بدورها تذهب طعماً للافاعي.

لم يعجبها استطراده في الحديث فسألته بصبر نافد:

- ولكن ماذا عن القندس؟ لقد استطعت ان تنقذه، أليس كذلك؟

اجابها بصوت خشن عنيف:

- لو كان ذلك ممكناً لما ترددت في انقاذه. لكن وضعه الاحتضاري لم يترك لي اي خيار سوى ان اريحه من عذابه باسرع طريقة ممكنة واقلها ايلاماً.

شعرت فجأة بيد خفية تعصر احشاءها، وسألته:

- بأية طريقة؟

- بخيط من المصيص كنت احمله لاستعماله كشرك... ولكن ليس للقتل بل للانقاذ، فحراس الغابات يكرسون جهودهم لانقاذ ارواح الحيوانات ولا يقتلون الا في حالة الدفاع عن النفس.

فقالت بحزن شديد:

- وهكذا خنقت القندس؟

فصحح قولها بهدوء:

- بل شفيته. الموت هو العلاج الشافي لكل الأوجاع والأمراض.

اضاءت الكلمة اشارة خطر في ذهنها... قال انه شفى القندس... كذلك المح الى ان بيتر قد شفي!

اتسعت عيناها رعباً وقفزت واقفة. شعرت باصابع تخنق حلقها وهتفت بصوت ابح:

- أين بيتر؟ اريد ان اراه الآن، هذه اللحظة!

- كلير!

نظرته المتوسلة زودتها بالدليل الساطع. اطلقت صرخة اشمئزاز وتراجعت الى خلف مبتعدة عن يده الممدودة ثم خرجت تركض من الكوخ كالمجنونة. بحثت في كل التخشيبات الخارجية ثم ركضت اخيراً صوب غرفة صغيرة كانت تستعمل للحياكة وتحوي مغزلاً كان الحائك يكب عليه احياناً في ضوء الشمعة ليغزل اقمشة الفلانيلا للبحارة والتنانير لزوجاتهم وليحيك من الكتان المانكسي الناعم اغطية وشراشف للأسرّة.

وصرخ فيها رولف:

- كلير! لا تدخلي الى هناك!

تجاهلت صرخته واقتحمت الغرفة ثم وقفت مترددة وهي ترمش عينيها بحركات متلاحقة. لكن سرعان ما لحق بها رولف حيث قبض على كتفها وجرها بخشونة الى الخارج، لكنها كانت قد وجدت الوقت الكافي لتلاحظ جسم الحمل الساكن ملفوفاً بالحرام وملقى في احد الزوايا.

- ايها القاتل!

زعقت بأعلى صوتها ثم سلخت نفسها من قبضته وخرجت تتعثر الى خارج التخشيبة حيث تقيأت بقوة.

راعى موقفها فتركها وشأنها حتى استعادت بعضاً من تماسكها. لكن حين استدارت اخيراً لتواجهه، لم تأبه بتاتاً لشحوب وجهه المتقلص ولا للعذاب العميق في عينيه. وقال بصوت رقيق:

- ارجوك يا عزيزتي، حاولي ان تفهمي السبب الذي دفعني الى فعلتي... لقد اصيب بذات الرئة وانعدمت لديه كل فرص الشفاء، ولذا اضطررت الى وضع حد لعذابه.

فهتفت بصوت ابح:

- لقد قتلته! قتلته لمجرد ان تروي عطش المتوحشين الى سفك الدماء، هذا العطش الذي يجري في عروقك! انت ذئب مجرم وقد قتلته بشراسة وعن سابق تصميم لانه تجرأ ليلة امس على الوقوف في طريقك. لكنك بعثت في الحياة في نفس الوقت، واحييتني بكراهية لم اكن اتصور اني سأتمكن من استشعارها تجاه اي مخلوق على وجه الأرض. شكراً لك لانك جعلتني استكمل ثقافتي. فقبل ان ألقاك كنت اجهل معنى الذل والمهانة والازدراء الذاتي، لكن بفضل دروسك التعليمية اصبحت خبيرة في استكشاف اعماق الأسى والرعب!

١٢ - في ثياب حمل

لقد اصبح رولف مهملاً، فلدى عودتها من نزهة طويلة مرهقة انعطفت كلير حول زاوية احدى التخشيبات ورأت ان السيارة التي جاءا بها الى الكوخ كانت متوقفة هناك والمفتاح ما يزال في داخلها. في بادىء الأمر لم تعِ اهمية ذلك وهي واقفة تتأمله ببلادة، ثم تراءى لها كمفتاح قادر على فتح ابواب سجنها، فسمرت بصرها في السيارة القوية الفارهة التي مثلت لها فجأة طريق الهرب الى الحرية، طريق الانعتاق من الوضع الكابوسي الذي انفجر صباح امس واخذ يزداد رعباً ساعة اثر ساعة.

هل حقاً لم يمض اكثر من اربع وعشرين ساعة على لحظة اكتشافها لجسم بيتر الصغير الميت؟ تساءلت باكتئاب وهي تضغط باصابعها المرتعشة على عينيها اللتين شعرت انهما غارتا في وجهها واصبحتا جافتين وموجعتين بعد سحبة طويلة من بكاء مرير وحائر. هل مرت فقط اربع وعشرون ساعة، منذ ان اكتشفت بان الرجل الذي تزوجته، الرجل الذي استطاع بوسائله الاقناعية الساحرة ان ينسف خطوط دفاعها الى حد بدأت ترحب بعواطفه الحميمة، كان وحشاً، كان ذئباً في ثياب حمل، وبلا ضمير ولا احساس حتى انه لم يتورع عن قتل ذلك المخلوق العاجز الذي وقع في طريقه بلا قصد او تفكير؟

اطلقت شهقة مختنقة اذ لم يبق لديها دموع تذرفها، لقد ذرفتها كلها يوم امس على الدرب الصخري الضيق، عندما هربت من المزرعة لتبتعد ما وسعها الابتعاد عن قاتل بيتر. سفحت دموعها على شاطىء البحر حيث جلست تتكور على نفسها لساعات

طويلة رهيبة وهي لا تحس لسعات الصقيع ولا تأبه للمد الهادر.

كانت الامواج على وشك ان تغمر ساقيها عندما وجدها رولف تقبع كتمثال بائس على رقعة الرمل الوحيدة التي تبقت من فسحة الشاطىء بعد ان غمرتها المياه. لم يضيع الوقت في التحاور معها بل اقتلعها من الرمل بوجه واجم صارم القسمات وحملها، وهي تقاوم وتصرخ بشراسة، صاعدا بها الدرب الصخري الخطر حيث، لو انه حاد خطوة واحدة الى اليمين او اليسار، لسقطا معاً على الشاطىء. فلمسة يديه بعثت فيها وقتئذ حياتها الجديدة الثائرة والمفعمة بالكراهية، فلم يعد يهمها ان تعيش او تموت.

لقد صرخت فيه بصوت قاس ناعب لم يكن هناك فرق بينه وبين صرخات طيور النورس الحائمة فوقهما:

- لا تلمسني! لا اطيق لمسة يديك المقرفتين والملطختين بالدم!

بدا مقدوداً من صخر، كزعيم هندي معتاد على تحمل التعذيب بصبر كبير وصمت. تجاهل انكماشها وقرفها منه، ولما ابتعدا واصبحا في مأمن من حافة الصخور الناتئة، تماسك اعصابه وانزلها بلطف الى الأرض.

قال لها بنبرة اشفاق زادتها حنقاً:

- انت في حالة سيئة من الصدمة والجوع تجعلك لا تدركين ما تقولين. لم تأكلي لقمة واحدة طوال النهار. هيا بنا، العشاء جاهز ينتظر قدومنا.

ومن خلال ضباب غضبها الأحمر سمعت نفسها تجيب بهستيريا وشراسة:

- واغلب الظن انك ادخلت بيتر في قائمة الطعام! هل ستقدمه مطهواً ام مشوياً ام مسلوقاً؟

ثم اصابها غثيان من مزاحها المجنون المقرف فغطت فمها بكفها. رشقته بنظرة مزدرية نكراء كسهم اخير في جعبة عينيها الكارهتين قبل ان تركض الى الكوخ حيث امضت بقية الليل ترتعد وتتعذب مسهدة.

سمعت حركة عند باب الكوخ حذرتها من خطر السماح له بان يشك في اهتمامها بالسيارة. هربت تختفي عن مرمى بصره ثم اختارت اتجاهاً آخر اقبلت منه بهدوء صوب الكوخ.

وسألها من بعيد:

- هل استمتعت بنزهتك؟

بدا لها من صوته انه متوتر الاعصاب الأمر الذي اثلج صدرها، لكن ما ان بدأت تقترب منه حتى رأت في عينيه ذلك الخواء القاتم الذي يبدو في عيني انسان فقد الأمل تقريباً.

اجابته بمرارة:

- تسألني عن الاستمتاع؟ لقد نسيت ماذا تعني هذه الكلمة.

كان يسد عتبة الباب ولذا لم يكن لديها خيار سوى ان تنتظر حتى يسمح لها بالمرور. تابع الحوار بهدوء وقد صمم على الاحتفاظ بتماسك اعصابه:

- سمعتك تخرجين عند الفجر وبدون ان تهتمي بأكل شيء. يجب ان تجبري نفسك على الطعام يا كلير والا انهك الجوع صحتك.

اجابته محتدة:

- وماذا ستفعل ان مرضت؟ هل ستشفيني عن طريق الشنق؟

مررت اصبعها على عنقها لتعزز معنى كلامها، وقبل ان تخفض يدها قبض عليها باصابعه الفولاذية وقال يحذرها بفم متقلص:

- لا تجعليني افقد صبري يا كلير. انت تبدين عازمة على اثارة اعصابي لكنني مصمم بالمقابل على عدم تمكينك من ذلك. انت لكونك طفلة ساذجة عشت حياتك داخل اسوار عالية، فقد اصبت بصدمة عنيفة حين واجهت حقيقة قاسية من حقائق الحياة ولهذا السبب تحملت اتهامك الظالم العنيف.

نبرته الرقيقة والمهددة في آن معاً ملأت قلبها رعباً وتابع يقول بالنبرة ذاتها:

- كنت في باديء الأمر التذ الى حد ما بثوراتك العصبية الطفولية لكني بدأت الآن اضيق بها ذرعاً. لذا لن اعطيك اكثر من فرصة واحدة واخيرة كي تكبري وتنضجي من تلقاء نفسك. سأذهب لاصطاد سمكاً.

ثم اسقط يدها كما لو انه احسها شعلة حارقة، واردف:

- سآخذ الزورق وامضي بقية النهار في عرض البحر كي اعطيك الوقت الكافي لتعودي الى صوابك. استفيدي من هذه الساعات يا كلير، لأني اذا عدت مساء ووجدتك على حالك الطفولي من الحرد والنكد فلن تتركي لي خياراً سوى ارغامك بالقوة على ان تنضجي بطريقة سريعة ومؤلمة!

ظلت لفترة طويلة بعد ذهابه تحدق في آثار قبضته الحمراء حول رسغها

وكأنها سوار عبودية طبعته على لحمها اصابع سيد جبار! الليلة سوف يطالبها بأن تلعب دور الزوجة المطيعة والخالية من الروح. حمداً لله انه نسي امر السيارة وترك المفتاح فيها!

لم تضيع الوقت في جمع حوائجها ولم تهتم حتى بعقص شعرها الذي جف امس من تلقاء نفسه وبدا الآن كغيمة ذهبية تموج حول كتفيها. ركضت بلا وعي الى حيث السيارة ولفرط ارتباكها وارتجافها وجدت صعوبة في ادارة المفتاح. وفي الأخير دبت الحياة في المحرك وجعر بلطف مذكراً اياها بوحش الغابات الذي تهرب منه. توقعت الى حد ما ان تراه يجد في اثرها، فالتفتت الى الوراء تنظر بعصبية عبر كتفها ولما تأكدت من خلو المكان داست على البنزين ثم انطلقت تقود السيارة بعصبية.

لم تكن لديها فكرة واضحة عن الاتجاه الصحيح الذي يجب ان تسلكه لكن بما انه لم يكن سوى طريق ضيقة واحدة تقع خلف الكوخ، فقد اختارت ان تعود سالكة نفس الاتجاه الذي اتيا منه، وهي تعلم انها سوف تصل في النهاية الى الطريق الأوسع التي تقع خلف الأراضي المستنقعية.

كانت تعلم ايضاً، انه في حال عدول رولف عن صيد السمك وعودته الى الكوخ في هذه اللحظة، فلن يستطيع اللحاق بها بأية وسيلة ممكنة. وبالرغم من ذلك كان قلبها يخفق خائفاً داخل صدرها وكانت كفاها تنزلقان على المقود لفرط تعرقهما لدى وصولها الطريق المطلوبة ورؤيتها لعمود الاشارة المرسومة عليه ذراع بيضاء تدلها الى طريق بيتها. شعرت بتلك الذراع تهمزها وتحثها على زيادة المجازفة وهي تنطلق كالريح على الطرقات المهجورة الى ان بلغت المناطق الريفية المألوفة لديها. بدا لها ان ساعات طويلة قد مرت قبل ان تصل بيتها اخيراً. دخلت بالسيارة على الممر المرصوف بالحصى ثم اوقفتها امام مدخل المنزل. ترجلت من السيارة واحست كما لو انها اشتركت في سباق طويل لكنها ارغمت ركبتيها المصطكتين على حملها وهي تصعد الدرجات القليلة الى الباب. طرقته بقبضة واهنة وبصر زائغ، ثم كادت ان تتعثر بالعتبة حين انفتح اخيراً من قبل سيدة لا تعرفها.

- صباح الخير يا آنسة، هل اقدر ان اساعدك بشيء؟

هذا الصوت الغريب اللهجة الى حد ما، والحاجبان الدقيقان المائلان

قليلاً. . . اين سمعت الصوت واين رأت الحاجبين من قبل؟ حدقت كلير الى المرأة التي فتحت لها الباب وكانت تتأملها كما لو انها تتأمل دخيلاً وضيعاً.

تساءلت كلير كيف ان هذه المرأة النحيلة ذات الجمال الناضج والثياب الانيقة، استطاعت ان تتخذ لها مسكناً في منزل والدها. سألتها بصوت مرهق:

- من انت؟

- انا التي يجب ان اطرح عليك هذا السؤال، اليس كذلك؟

ثم اطلقت ضحكة رنانة احدثت صدى غريباً لا يتلاءم مع جو هذا البيت الذي احتفظ على مر السنين بصمته الوقور وهدوئه الرصين.

اجابتها كلير:

- انا انتمي الى هذا المكان.

وشعرت فوراً انها هي نفسها غير مقتنعة بهذه الحقيقة.

فعبست المرأة الغريبة وتقدمت منها قائلة:

- انا لا افهم، فالذي اعرفه يا آنسة، ان السيد فوكسديل ليس له الا ابنة واحدة وهي تزوجت ابني منذ بضعة ايام.

- تزوجت. . . ابنك؟

حدقت كلير بغباء الى والدة رولف وهي تتساءل كيف استطاعت ان تغفل عن نقاط الشبه المتعددة بينهما، العينان المتألقتان، الفم المكتنز والمائل صعوداً، الشعر الأسود والحدقتان الداكنتان والذقن القوي الدال على عزم وبأس.

بدأت المرأة تعي الحقيقة التي لا تريد ان تعيها، عندما ترنحت كلير من فرط الارهاق القريب من الانهيار وقالت وهي تنشج:

- انا . . . كلير.

نصف الساعة التالية مرت كما لو انها في حلم. اذ بالكاد استطاعت في ما بعد ان تتذكر كيف دفعتها والدة رولف حيناً وحملتها حيناً آخر حتى اوصلتها الى اريكة في غرفة مجاورة، وكيف مددتها عليها وركزت رأسها على وسائد مريحة، وكيف كانت طوال الوقت تعتني بها باهتمام شديد جعل عينيها التعيستين تفيضان بدموع الشكر والامتنان.

سألتها المرأة بصوت لطيف انما بلهجة حازمة طالبتها بجواب صادق:

- كم من الوقت مضى عليك بدون طعام؟

فاعترفت كلير بقولها:

- منذ ساعات... بل منذ ايام ... اوه... لست متأكدة!

- هذا ما ظننته!

ثم امرتها السيدة رامسي بسلطة ذكرت كلير بتصرفات رولف:

- ابقي حيث انت واياك ان تتحركي. ساعود اليك في خلال دقائق.

وعادت بالفعل بعد دقائق معدودة وهي تحمل صينية عليها طبق حساء، كوب حليب، كدسة من شرائح الخبز الرفيعة وصحن زبدة.

ساعدت كلير في الجلوس بعد ان اسندت ظهرها بوسائد اضافية وقالت مبتسمة:

- ارجو الا تتضايق مدبرة المنزل لكوني تصرفت بحرية في مطبخها. اليوم سمح لها والدك بالتغيب كي تحضر المهرجان السنوي الذي ذهب هو ايضا لحضوره، ولذا ليس في البيت احد سوانا. لقد شاء القدر، لحسن الحظ، ان اؤخر ذهابي لحضور المهرجان لبينما اتلقى مخابرة هاتفية من الخارج، ولولا ذلك لكنا رجعنا لنجد فتاة غائبة عن الوعي ملقاة على عتبة الدار.

حاولت كلير ان تقاطعها فقالت تؤنبها بمحبة:

- اجّلي الشرح الى وقت لاحق. لا اريد سماع اية كلمة قبل ان تنتهي من تناول الحساء.

امتثلت كلير لامرها كطفلة مطيعة وتركتها تطعمها الحساء بالملعقة وتغريها على اكل الخبز والزبدة حتى فرغ الطبق ولم يبق من الخبز الا بعض الفتات. شعرت بالقوة تعود اليها فارتكزت بارتياح على ذراع الأريكة واخذت ترشف الحليب الذي بدا لها خفيفاً وعديم النكهة بالنسبة الى الحليب الدسم الذي كانت تحلبه من ضرع مارغوت.

ابتسمت لوالدة رولف بخجل اذ شعرت بحرج من النظرة الحائرة التي كانت تركزها عليها. وقالت المرأة تعتذر عن تحديقها:

- سامحيني يا عزيزتي، لكنك تختلفين كلياً عن الصورة والأوصاف التي تلقيتها عن زوجة ابني. فالكلمات كانت واحدة لا تتغير وقد استعملت

الأوصاف التالية، انيقة، وقورة، منعزلة، هادئة، وبالطبع، جميلة جداً وهذا الوصف الأخير هو الوحيد الذي استطيع الموافقة عليه. نتيجة لذلك كونت عنك انطباعاً خاطئاً جعلني ارهب الالتقاء بك لأول مرة لانه خامرني شعور اكيد باني لن استطيع الارتقاء الى مقاييسك العالية. لذا لا يمكنني التعبير عن مبلغ الارتياح الذي احسسته عندما وجدت فتاة «بشرية» جدا تسقط بين ذراعي، فتاة مشعثة الشعر والثياب، مذعورة العينين تعاني عذاباً عاطفياً يمزق روحها.

ادارت رأسها الى الجانب الآخر وتابعت مبتسمة:

- والآن، يا صغيرتي، هل لديك النشاط الكافي لتحدثيني عما فعله ابني الأخرق والنافد الصبر حتى انزرع كل هذا الحزن في عينيك؟

وجدت كلير سهولة مدهشة في بث همومها واشجانها لهذه السيدة العطوفة التي كانت متأكدة من مكانتها الراسخة في عواطف رولف، والى درجة جعلتها ترغب من قلبها في مشاركتها. روت لها كل شيء بالتفصيل، بدأت من حادثة استغلالها القاسي لزلة جوناثان، ثم الطريقة التي أكرهها بها على الزواج منه ضد رغبتها، والحرمان الذي جعلها تكابده في ذلك الكوخ البدائي. واختتمت الحكاية بوصف دقيق ومضخم للحادثة المشؤومة التي انتهت بموت الحمل، وهي تنشج وتغص بريقها. بدا العذاب واضحاً في عينيها الرماديتين حين نطقت العبارة الاخيرة الطافحة بالألم، وغيمت بصرها بقايا الدموع التي ذرفتها بغزارة والى حد اشعرها بانها ستعجز عن البكاء ثانية في المستقبل.

امتد بينهما صمت ثقيل كانت السيدة رامسي في خلاله تحاول عبثاً ان تسيطر على تعابير الاستغراب والخيبة والرعب التي ارتسمت على وجهها. وبالرغم من التزعزع الذي اصاب كرامتها كأم، فقد رن صوتها باستغراب شديد حين استطاعت اخيراً ان تجيب:

- يستحيل علي تصديق هذه الاتهامات الموجهة الى ابني. من المستحيل ان تصدر عنه تصرفات كهذه.

وهنا حاولت كلير ان تحتج الا انها اوقفتها بحركة من يدها وتابعت قائلة:

- لا، لا يا عزيزتي! انا لا احاول القول انك كاذبة في كلامك، بل

اقصد ان الأمور التبست عليك بطريقة ما وانك اسأت فهم الدوافع الحقيقية الى تصرفات رولف. ما الذي فعلتماه لبعضكما البعض يا ترى؟

طوحت يديها في الهواء معبرة عن انفعالها واردفت:

ـ لا ادري كيف حصل هذا الانقلاب في طبيعة كل منكما! فها انت، الفتاة الهادئة الوقورة، تتحولين الى حطام هستيري، فيما رولف، المعروف عنه عطفه العميق على الحيوانات، ينقلب الى وحش قاتل؟ ان ظاهرة كهذه لا يمكن ان تصدق ولا بصورة من الصور! عندما خابرني رولف هاتفياً ليزف الي بشرى زواجه الوشيك، تكوّن لدي انطباع فوري بانه كان غارقاً حتى اذنيه بحبه «لأميرته»، كما سمّاك، وانك كنت تبادلينه حبه بالمثل. لا بد ان شيئاً ما قد حدث في خلال الأيام الماضية حتى انقلبت الموازين بهذا الشكل الرهيب.

فقالت كلير تعارضها بمرارة:

ـ ابنك لم يقع في حبي في اي وقت من الأوقات. كل ما في الأمر انه انجذب الي، وانت تعرفين ولا شك، انه يحصل دائماً على رغباته.

فأكدت لها امه بهدوء:

ـ وبصورة عامة، يكون جديراً بما يحصل عليه، لأنه متى انجذب الى شيء وقرر انه يستحق عناء الكفاح للحصول عليه، يكرس قلبه وروحه وعقله من اجل قضيته. ان الحيوانات والناس على السواء، قد استفادوا من نزعته العنيدة الى تصحيح الاخطاء ورفع المظالم واحقاق الحق. لقد خاض معركة حامية الوطيس مع السلطات الكندية انتهت بادخال قوانين صيانية جديدة، حيث اعلنت حماية بعض انواع الحيوانات التي كانت مهددة بالانقراض.

ثم ان المظالم التي كابدها الهنود الحمر وقاسوا منها الأمرين كانت هاجسه الأكبر، وهم ايضاً مدينون له بالكثير لكونه ناضل منفرداً في سبيل رفع تلك المظالم عنهم واعطائهم حقوقاً ما كانوا ليحصلوا عليها لو لم يفعل.

وهنا غامت عيناها بدموع رقيقة واردفت:

ـ حتى في صغره كان يكرس نفسه باندفاع لتخفيف اوجاع الحيوانات المصابة حتى اصبح بيتنا مستشفى صغيراً لكل حيوان جريح او اعرج او اعمى، حيث يزود المذعور بالشجاعة والقوة ويعلم الشرس اصلاً كيف

يصبح اقل فتكاً وعنفاً. لكن بالرغم من حصوله على كل ذلك القدر من النجاح، فوجئت مراراً برؤيته جالساً على سريره يبكي بحرقة على موت حيوان عجز عن انقاذ حياته، لأنه كان في حالة تلف يستحيل معها انقاذه. ولذا جاء وقت يا عزيزتي، فكرت فيه جدياً بمنعه عن مواصلة نشاطاته تلك لخوفي على صحته العاطفية. وهكذا ترين ان معرفتي الوثيقة بنفسية ابني وخلقيته، لا تجعلني اصدق بأي شكل انه يلحق اذى متعمداً بمطلق مخلوق على وجه الأرض.

احست كلير بلهفة غريبة في الاقتناع، ولذا قالت باصرار مهزوز:

ـ لقد رأيته بأم عيني بنصب الشباك والمصايد لاقتناص الحيوانات بغية طهوها واكل لحمها!

اومأت السيدة رامسي برأسها وقالت متجاهلة عبارة كلير الأخيرة:

ـ وهو صياد ماهر، أليس كذلك؟ انه يدين لاصدقائه الهنود بقدرته على الحفاظ على حياته، وفي ظني انه قد ضاع عدة مرات في الغابات الشمالية اثناء اقامته فيها. ثم استطاع ايجاد طريقه بفضل ارشادات اساتذته وخبراتهم، علماً انه لم يعترف لي مطلقاً بذلك.

صمتت قليلاً ثم تابعت بلطف:

ـ ان كل الناس الخلوقين يمجون القسوة بكل اشكالها، لكن اريدك ان تسألي نفسك يا عزيزتي عن عدد الناس الأطهار الذين يرفضون أكل لحوم السمك والطير والحيوان؟ أليست نسبتهم ضئيلة قياساً مع مجموع الآخرين؟

توردت كلير اذ وعت ان السيدة رامسي محقة في تأنيبها اللطيف. ثم استجمعت شجاعتها لتطرح عليها سؤالاً شخصياً محرجاً:

ـ الم يضايقك ان تتزوجي رجلاً ينتمي الى عائلة يجري فيها عرق من الدم الهندي الأحمر؟

وللحظة عابرة بدت السيدة رامسي مندهلة الى حد الصدمة مما جعل كلير تظن انها قد جرحتها في الصميم، ثم انتقل الذهول اليها حين بدأت المرأة تضحك واخذت ضحكتها تتسع وترن بمرح حقيقي.

في الأخير، توقفت عن الضحك بصعوبة وقالت معتذرة:

ـ آسفة يا عزيزتي، لكن لم يخطر لي اطلاقاً ان تكون تلك الحكاية القديمة

ما تزال تدور على الألسن الثرثارة! من اخبرك اياها بحق السماء؟ هذه الحكاية المضحكة شاعت في مونتريال منذ سنوات طويلة وما تزال، الا انني لم اتصور ابداً انها استطاعت القفز الى هنا عبر المحيط الاطلسي!

ـ حكاية...

تذكرت كلير كل التعليقات اللاذعة التي قذفت رولف بها حول صداقته المتينة مع الهنود الحمر، فاصبحت وجنتاها بلون النار لفرط الخجل، واردفت تسأل امه بصوت مختنق:

ـ اتقصدين انها ليست حقيقية؟

فقهقهت السيدة الجذابة وقالت:

ـ بالطبع لا. انها مجرد اشاعة انطلقت منذ عدة سنوات وقد اطلقها، على ما اعتقد، اناس كانوا يحسدون آنغس رامسي على نجاحه المنقطع النظير. وقد مال الناس الى تصديقها آنذاك بسبب صداقته المتينة مع الهنود الحمر، والمستهجنة بطبيعة الحال بالنسبة اليهم. انا لا ابرىء عائلة رامسي من تقصيرها في ايقاف تلك الاشاعة، اذ كان من السهل على رجالها ان يثبتوا افتراء هؤلاء المروجين وكذبهم، لكنهم تقاعسوا عن ذلك، اما بسبب اعتدادهم الشديد بانفسهم او لأنهم نظروا الى الاشاعة كدعابة مستملحة، وبالتالي اتاحوا للناس ان يصدقوها. آنغس رامسي كان رجلاً مثقفاً يخاف ربه كثيراً، ولذا لم يكن من المعقول ان يدنس كتاب العائلة بكذبة، اذ انه سجل عليه تاريخ زواجه من المدعوة حنة مونرو، وفي هذا اثبات قاطع للحقيقة.

بدأت كلير تدرك بوجوم كم كانت مخطئة في افتراضاتها وتصرفاتها، وكم اساءت في حكمها على رولف رامسي... ان الرجل الذي وصفته امه بدقة كان غريباً تماماً بالنسبة اليها، لكنها شعرت بطريقة غير محددة بأن بقاءهما كان عابراً، وان معرفتها اقتصرت على ايماءات صامتة حين تشاركا علاقة معينة حكم عليها القدر بألا تزدهر وتتعمق.

هذه الخاطرة اثارت فيها احساساً عميقاً بالفجيعة واحساساً اعمق بوحشتها الرهيبة، الأمر الذي جعل السيدة رامسي تشهق باستغراب حين نظرت الى كلير ورأت لواعج اليأس في عينيها.

غصت الصبية بريقها وبدت شفتاها في بياض الشمع وهي تقول:

ـ لقد عاملته بطريقة مشينة ومخزية. يجب ان اعود اليه لأعتذر عن تصرفاتي ولأحاول شرح الأسباب التي دفعتني اليها.

توقعت ان تسمع رداً مفعماً بالغبطة والتشجيع، لكنها شعرت بخوف مرعب حين عبست السيدة رامسي وقالت بصوت يقطر الماً:

ـ اتمنى لك التوفيق يا عزيزتي، انما اخشى ان يكون الأوان قد فات على ذلك ـ راح الخوف يطرق قلبها كما لو انه يبلغه رسالة قاسية رهيبة وسألت بحيرة متعثرة:

ـ لماذا تقولين هذا؟ انا لا افهم قصدك؟

فاعترفت السيدة رامسي وقد انطفأ بريق المرح في عينيها:

ـ لقد انكرت كل شكوى رفعتها ضد رولف، ما عدا شكوى واحدة من مزية سيئة في دماء كل رجال عائلة رامسي، لم تستطع اية زوجة او اخت ان تطهرها منها... «واياك ان تنسى معروفاً، اياك ان تغفر اذية...» هذا الشعار ما تخلوا يوماً عن تطبيقه، ورولف، كأي واحد منهم، تسكنه كبرياء لا حد لها، ولذا اخشى ما اخشاه ان يكون فراقك منه قد طعن كبرياءه في الصميم وانزل به ذلاً كبيراً قد يجعل غفرانه لك امراً مستحيلاً!

١٣ - معلقة على الحافة

لا احد من معارفها كان ليستطيع القول، لو رآها، بأن هذه الفتاة المتوحشة العينين والطائرة بسيارتها كامرأة مسكونة على الطرقات الهادئة الموصلة الى الطرف الجنوبي من الجزيرة، هي نفسها الفتاة الهادئة الشاحبة التي كان اسمها كلير غارف فوكسديل!

لكنها كانت قد تخطت حدود الاهتمام بما قد يقوله الناس عنها، باستثناء انسان واحد هو رولف رامسي، الرجل الذي استطاع بحبه ان يبعث الحياة في جمالها النائم.

وتذكرت . . .

في خلال الصمت الواجف الذي اعقب عبارة امه الأخيرة حيث تكهنت باستحالة غفران رولف، عاد الى ذاكرة كلير قوله: «سوف اعود مساء» . . . وعندها شعرت بنوع الارتياح الذي يستشعره رجل محكوم عليه بالاعدام حين يعطى مهلة لا تتعدى الدقيقة يحقق فيها رغبة اخيرة. وفي تلك اللحظة المشرقة ذاتها ادركت ان الحياة بدون رولف لن تعدو كونها موتاً مقنعاً بالحياة. . . لقد اظهرت امه ذهولاً في محله عندما قفزت كلير من على الاريكة وهجمت بيدها على الطاولة تسحب عنها مفاتيح السيارة، وفيما هي تركض كالمجنونة الى الخارج لم تكلف نفسها عناء تفسير واضح لتصرفها، بل اكتفت ببضع كلمات مشوشة رشقتها بها عبر كتفها الا انها كانت كافية بالنسبة الى حماتها حيث انفرجت شفتاها عن بسمة ارتياح، ومازجت صوتها رنة أمل وهي تودعها صائحة فوق ضجيج المحرك:

- حظاً سعيداً يا عزيزتي مع حبي لكليكما.

ثم لم تدر كلير، هل ان الغريزة ام القدر كان الذي قادها على الطرقات الصحيحة وارشدها الى حيث يجب ان تنعطف او ان تمضي قدماً، حتى انها عندما ترجلت اخيراً من السيارة بخطوات متعثرة بعد ان اوقفتها خلف التخشيبة حيث وجدتها تماماً، ودخلت الكوخ كريح عاتية، بالكاد استطاعت ان تصدق عقربي الساعة اللذين كانا يؤكدان لها ان العصر ما يزال في منتصفه.

لم يكن في ذهنها اية خطة محددة لما يجب ان تفعله، الا انها شعرت بيدين خفيتين ترسمان لها الطريق وبدأت استعداداتها لاستقبال سيد البيت او «الرجل الضخم» تبعاً للغة بلادها. وبثقة كبيرة، كما لو انها اعتادت على العمل المنزلي ومارسته في كل يوم من ايام حياتها، بحثت بدقة في الخزانة شبه الفارغة، ثم قررت ان المواد المتبقية فيها تكفي تماماً لصنع سلطة بطاطا تلائم السمك الذي سيأتي به رولف من البحر.

قشرت البطاطا بحركات رشيقة ثم وضعت البيض في الابريق وعلقته على المقبض ليغلي فوق نار الموقد. وجدت ضمة متهدلة من الكرفس فغطستها في مزيج من الماء والخل كي تسترد نضارتها، ثم خطرت لها فكرة اخرى فاضافت اليها حزمة من البصل الاخضر الذابل ايضاً على امل ان يساعد نقاع الملح والخل في احياء عروقه المتهدلة. ثم ابتدعت صلصة للسلطة صنعتها من حليب معلب خففت دسمه بقليل من الماء، واضافت اليه ملحاً وفلفلاً وكمية صغيرة من الخردل. لكن مشكلة تحضير نوع من الحلوى بدت مستعصية الحل. وكانت على وشك ان تكتفي بتقديم الليمون الهندي المحلى بالسكر حين هبط عليها الوحي من مكان ما. . . احست بروح من الماضي تحوم حولها ثم تنحني على كتفها متنهدة بحسد وحسرة، وهي تخرج من قعر الخزانة علبة كرتونية تحوي مزيجاً تصنع منه حلوى الزنجبيل. وقرأت بعناية التعليمات المكتوبة على العلبة قبل ان تبدأ خلط المواد المطلوبة. فاحت من العجينة رائحة شهية وبدت ملساء كثيفة كما لو انها حضرت بالطريقة الطبيعية، ثم ازاحتها جانباً لتركز اهتمامها على الليمون. اخذت كل رأس على حدة وقصت ثلثه من فوق ثم اخرجت الفاكهة من الداخل بواسطة ملعقة حتى لم يبق الا الجلد الفارغ، وهذه الجلود حشتها بعجينة الحلوى. بعد ذلك جاءت بوعاء معدني رقيق كان

رولف قد احتفظ به من وجبة سابقة سريعة التحضير، واملت بان يزود الفاكهة المحشوة بعازل كاف ضد حرارة النار.

كانت تعمل بسرعة محمومة وعينها لا تغفل عن مراقبة الساعة التي بدا لها فجأة ان عقربيها شرعا يتسابقان حول صفحتها القديمة الباهتة. وضعت طبقين على الطاولة والحقتهما بأجمل الأواني التي وجدتها على الرفوف، وخصصت دقيقتين ثمينتين من الوقت الراكض حيث نسقت اضمومة من الزهور البرية وضعتها في منتصف المائدة. ثم خطرت لها فكرة جديدة فجاءت بقاعدتي الشمع المعدنيتين ووضعت كلا منهما على طرفي الطاولة على اساس ان تؤجل اشعال الشمعتين لحين تنذرها خطوات رولف بانه على وشك الدخول. ان تناول الطعام في ضوء الشموع يوجد جوا من الرومانسية ومستقبل سعادتها برمته يتوقف على قدرتها على الايحاء الى رولف بأن عروسه الأسيرة قد نفضت عن قلبها كل غبار الحقد والنفور وباتت على اتم الاستعداد لاستقباله.

كانت الظلال قد بدأت لتوها تستطيل على الجدران وهنا قررت ان الوقت قد حان لكي تركز اهتمامها على لباسها ومظهرها. القت نظرة سريعة وشاملة على الغرفة التي زودتها نيران الموقد المتراقصة بدفء حميم وبدت مريحة ومغرية من خلال المائدة المثقلة بسلطة مسكوبة بذوق على طبق خشبي، بصحنين مليئين بخبز طازج شهي الرائحة وبحلوى الزنجبيل التي نضجت بدون ان تحترق وكانت تملأ الغرفة بعبير بهاري من شأنه ان يضاعف شهية رجل شديد الجوع.

وراحت تبحث في حقيبة جهازها التي ما تزال على ارض غرفة النوم حتى عثرت على الثوب المميز الذي كانت تفتش عنه. غمغمت بسرور ومررت يدها على قماشه الزهري، ثم مددته بعناية على السرير ويداها ترتجفان رهبة.

استحمامها تحت الدوش البدائي لم يستغرق اكثر من دقائق معدودة. الا انها صرفت وقتاً طويلاً في تسريح شعرها بعدة طرق حتى استقرت اخيراً على الجديلة الهندية التي سحرت لب رولف عندما زارته مرة في الفندق، فما استطاع آنذاك ان يقاوم رغبته في لف ذلك الحبل الذهبي حول عنقها كما لو انه يلفه بأنشوطة. فرقت شعرها عند منتصف جبينها من فوق، وشدته

ممهداً الى الوراء ثم جدلته في ضفيرة واحدة سميكة فبرز جانب وجهها واضحاً كجوهرة مصقولة وناعماً كتقاسيم طفل. الا ان عينيها الرماديتين والمظللتين قليلاً كان في عمقهما غموض اخاذ، اما شفتاها المكتنزتان بنعومة والمتماوجتان بلون وردي طبيعي فقد بدتا شديدتي الاثارة بفعل ابتسامتها الغامضة الشبيهة بابتسامة الموناليزا الشهيرة.

بالكاد وجدت الوقت لتشعل الشمعتين ولتطفىء عود الثقاب قبل ان ينفتح باب الكوخ ويدلف رولف الى المطبخ. تملكته حيرة مذهولة لحظة وقع بصره عليها. ووقف لبرهة يسند ظهره الى الباب وهو يخفي عواطفه المتصارعة لئلا تفضحها عيناه اللتان بدتا في سواد العاصفة تحت حاجبيه المعقودين وجبهته المظللة بشعر مبعثر.

قالت بسرعة:

ـ مرحباً!

كانت عازمة على مخاطبته بصوت حنون وجميل كنغمة ناي، فاغتاظت ضمناً حين خرج عالياً وحاداً كصفارة من تنك. استجمعت شتات نفسها وحاولت مرة اخرى بقولها:

ـ كيف كان يومك؟ هل حظيت بصيد وفير؟

رمقها بنظرة متمعنة ثم عادت تفقد رباطة جأشها وهي تراه يعبر الغرفة بصمت ليلقي كمية من السمك في دلو ماء.

رد فعله اصابها بخيبة عنيفة وموجعة. لقد توقعت منه تجاوباً اوضح تجاه الجهود المضنية التي بذلتها، الا انه شرع يشق السمك وينظف احشاءه بدون ان تظهر منه اية دلالة على انه لاحظ شيئاً غير عادي.

وطوال فترة العشاء لم يوجه اليها حتى كلمة. لكنه القى نظرات فاحصة على طبق السلطة وخبز الخميرة وحلوى الزنجبيل، وخص الزهور والشمعتين بنظرات اطول واعمق، ومع ذلك لم ينطق بتاتاً، وما سمعت منه كلمة استغراب او استحسان او حتى عبارة سخرية!

وشيئاً فشيئاً اخذت امواج آمالها السابقة تتحول الى فيضان اغرقها بالذل وبعث فيها عصبية شديدة. كانت ترشف الحليب وهي تقبض على الكوب باصابع مرتجفة، وفجأة اهتزت يدها كما لو بصدمة كهربائية فاندلق شيء من الحليب على فمها مما اضطرها الى جرع كمية فاض بها حلقها. كان

رولف يركز نظراته الواجمة على طبقه لكنه رفع بصره حين سمعها تبقبق.

التقت عيناه السوداوان كقعر بئر بعينيها الرماديتين المذعورتين وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة جعلت اصابع قدميها ترتفع الى اعلى. اختفت بسمته بسرعة كما ظهرت، وهنا تكلم الا ان نبرته الحزينة حملت شيئاً من العطف في ثناياها.

- فمك الملوث بالحليب ونظرتك الواسعة المحدقة يذكرانني يا كلير بتلميذة مدرسة مذنبة يقبض عليها متلبسة بجرم ما.

ثم رق صوته حين اردف مستوضحاً:

- خبريني بالله عليك، ما الذي فعلته من وراء ظهري؟ هل ارتكبت في غيابي امراً ممنوعاً لم يرض عنه ضميرك؟

- كلا، بالطبع.

كذبت عليه وهي تأمل وتضرع الى الله الا تراوده فكرة الكشف عن مقدار البنزين في السيارة.

فعاد يسألها بالحاح:

- هل بقيت في الكوخ طوال النهار؟

تباً له! انه يحمل ضميرها وزر كذبة اخرى! تخضب وجهها بحمرة ثانية فضحتها وردت متلعثمة:

- اجل... طيلة النهار.

شعرت بقلبها ينخلع من صدرها حين قفز واقفاً على قدميه بعنف شديد جعل احد الصحون يسقط على الارض ويتحطم. اطبق يديه على كتفيها النحيلتين وراح يهزها بلا رحمة وهو يزأر من بين اسنانه:

- اخبريني الحقيقة، ايتها الكذابة المخادعة! عندما تركتك هذا الصباح عدت بعد قليل لأن صورة وجهك المفجوع ظلت تلاحق ضميري وتعذبه. جئت لاعتذر اليك واطلب منك الصفح عن قسوتي فاذا بي افاجأ بانك قد هربت في سيارتي حالما ادرت لك ظهري!

اشتعل صوته بغضب حارق وتابع قائلاً:

- في تلك اللحظة قررت اني قد اخذت كفايتي من العذاب، وان الزوجة التي تتجرد من الاخلاص الزوجي الى هذا الحد لا تستحق عناء

النضال من اجل الحصول عليها، ولذا عدت ادراجي الى زورقي.

ضحكته المفاجئة والخالية من اي مرح اوجعتها اكثر مما اوجعتها اصابعه المنغرزة في كتفيها. تابع يقول غاضباً:

- قضيت ساعات طويلة افكر في مشكلتي وابحث عن طريقة املأ بها مستقبلي الخاوي. هل يمكنك ان تتصوري مدى استغرابي عندما رجعت الى الكوخ وبدلاً من ان اجده فارغاً كما كنت اتوقع، وجدت انك قد امضيت ساعات في تهيئة العلف لعجلك المسمن وانك تزينت كغانية بقصد ان تستعيدي مكانتك في قلبي عن طريق الاغراء الرخيص؟

احسها تجفل داخلياً كما لو انه صفعها بكفه، لكنه لم يأبه لأحاسيسها المنجرحة بل سدد اليها ضربة قاسية اخرى طعنت قلبها:

- لماذا رجعت الي يا كلير؟ ألأنك اكتشفت ان جوناثان هيوود لم يعد راغباً فيك، او بالاحرى، لا يجرؤ على المطالبة بك لخوفه من العقاب؟

خفت صوته واكتسب نبرة حقد مكثفة وهو يتابع:

- من حقه ان يخاف، فلو انه لم يطردك من حياته لكنت حطمت عظامه وحطمت مركزه الاجتماعي على حد سواء!

تسمر بصرها في عينيه المشتعلتين وسط وجهه الخالي من التعبير كقناع مخيف. وفكرت بذعر، كان سيحطم جوناثان كما ينوي الآن ان يحطمني... لا مهرب لها من عقابه المحتوم، بيد انها لا تستطيع احتمال عذاب اكبر، فحبها له هو عقاب بحد ذاته!

شعرت باليأس يحثها على اللجوء الى احتيال دنيء كانت في الماضي تعتبره تصرفاً في منتهى الخسة. اطلقت تأوهاً خفيضاً مصطنعاً ثم تهاوت عليه وقد تعمدت ان تدع خدها الناعم يقع على صدره. سمعت شهقته الخفيفة الفجائية وانتظرت حتى ارخى قبضتيه على كتفيها، فانتزعت نفسها بعيداً عن متناوله وركضت تفتح باب الكوخ وتفر كالعمياء لتختفي عن بصره.

كان الليل قد ارخى سدوله، لكن القمر الساطع اضاء لها مواطئ قدميها على الدرب المؤدي الى قمة الصخور. وهكذا مضت تعدو صعوداً ولم تتوقف الا مرة واحدة لكي تنزع حذاءها العالي الكعب الذي كان

يعرقل خطواتها لدى قفزها على الشقوق العميقة والمتداخلة بين الصخور. لم تدرك مدى حماقة هروبها الا حين وصلت الحافة الشاهقة واتضح لها انها قد حاصرت نفسها بنفسها في مكان مسدود. . . تحتها كانت الامواج تهاجم الشاطىء وقد غطى المد اكثر من منتصف الدرب الذي فكرت في استخدامه كطريق للهروب. شعرت بأن رولف سيلحق بها في خلال لحظات معدودة، فاطلقت نشيجاً مختنقاً وطرحت جسمها المتعب على رقعة مظللة تحت صخرة مجوفة. تكورت على نفسها متقلصة الاعصاب وهي تضرع الى الله بأن لا يتمكن من العثور عليها.

وفيما هي تجثم في لجة الشقاء بدأ سمعها يلتقط صوتاً خفيفاً وغريباً عن صرخات الطيور التي تستوطن تلك الصخور. ارهفت اذنيها، ولما تكرر وسمعت هذه المرة ثغاء واهناً مرتجفاً تجمدت اوصالها، اذ تصورت ان شبح بيتر قد عاد ليطاردها. استبعدت هذه الخاطرة الخيالية واخذت تزحف على يديها وركبتيها في اتجاه حافة شق قريب. وفي ضوء القمر المشع كثريا بلورية، وقع بصرها على جسم مكسو بصوف بني كان يتمايل على حافة رف صخري في منتصف الهاوية الناتئة الاطراف.

وكأنما احس الحيوان الصغير بوجودها، اشتد ثغاؤه الحاحاً. وعندما رفع رأسه صوبها اتضح لها ان الحمل المذعور لم يكن سوى بولي. . . شقيقة بيتر التوأم!

ولو انها توقفت قليلاً لتفكر لأشار عليها عقلها بأن تنتظر قدوم رولف الذي لا بد انه على قاب قوسين من مكانها، لكن تفكيرها بأن النعجة سوف تموت جوعاً بدون حليب، طغى على حواسها وأنساها تماماً وجوب الاحتراس.

راحت حفافي الصخور الحادة تجرح باطن قدميها حين بدأت هبوطها المتلوي على الدرب الخطر في اتجاه بولي، وهي تتمسك بخصل العشب الخشن النامي بين الصخور وتتحسس بقدميها مواطىء التجاويف العميقة كي تتجنب الانزلاق.

ومن حسن حظها ان القمر الساطع ظل يواكب مسيرتها الصعبة، الأمر الذي مكنها من رؤ ية كل شيء بوضوح وهي تتلمس طريقها نزولاً على حافة الهاوية التي لا يزيد عرضها عن عرض كتفيها، فيما امواج البحر تفح

كالأفاعي عبر الأعماق المكفنة بالظلال.

كانت قدماها مشققتين ويداها متخدشتين تنزفان لما وصلت اخيراً الى الحافة العريضة ذات الأمان النسبي. غمرها الارتياح حين اسندت ظهرها الى الصخرة واخذت تعب الهواء بجرعات كبيرة لتهدىء اعصابها المخلخلة، ولتزود ركبتيها المصطكتين بشيء من الصلابة.

بدأت بولي تتقدم منها بخطوات مهزوزة مترددة، ثم عادت تطلق ثغاء استقر في قلب كلير كسهم قريب.

همست لها مشجعة:

- تعالي الى حضني يا حبيبتي المسكينة ودعيني ادفئك.

كان في نيتها ان تمد لها ذراعيها لتحضنها، لكنها فوجئت بواقع مرعب جمد الدم في عروقها. فالحافة كانت اضيق من ان تتيح لها الانحناء الى الأمام، وكل ما كان بوسع كلير ان تفعله هو ان تخطو الى اليمين او الى اليسار، وفي حال اقدامها على اي من الخيارين فالنتيجة ستكون واحدة، حيث ستقع كلتاهما في مصيدة تحول دون تحركهما في اي اتجاه او الى اي مكان!

افزعتها ورطتها فقالت لصديقتها بصوت مرتجف:

- اوه، بولي، كيف استطعت الوصول الى هنا في الدرجة الأولى؟

ردت عليها بولي بثغاء فرح وقد ارتفعت معنوياتها لتخلصها من وحدتها. وكأنما ارادت ايضاً ان تبين لكلير كيفية وصولها، فقد شقت طريقها، مستدلة بأنفها، عبر شجيرة هرمة تلتصق بالحافة الصخرية. ثم اختفت وراءها وهي تهز قفاها وتلوح بذيلها المكتنز. حسبت كلير انها قد سقطت في وهدة فشهقت ذعراً، وازاحت اغصان الشجيرة قليلاً لتكتشف وجود شق طوله قدم واحد كان يمتد بين الصخور ويشطرها الى نصفين. وقفت بعجز ترقب بولي المختفية وراء منعطف بدا مألوفاً لها، انما كان أضيق من ان يتسع الا لأصغر المخلوقات حجماً.

وهنا خطر للطبيعة ان تزيد مشكلتها تعقيداً، فحجبت القمر بالغيوم فاذا بالمكان يصبح اسود كالقطران وبارداً مخيفاً كجوف قبر.

- كلير، أين انت؟

الصوت المألوف، باركه الله، كان ضعيفاً انما يقترب منها شيئاً

فشيئاً... صرخت وهي تتمايل على حافة الهستيريا:
- رولف، انا هنا، في منتصف المنحدر، ارجوك، تعال وخلصني!
بدا صوته اقوى وهو ينادي:
- استمري في الصراخ، ازعقي بأعلى صوتك كي استطيع تحديد مكانك.
- رولف... رولف... انا هنا... انا هنا...
كانت كلماتها ترتد كطابات على جدران الصخور ومن ثم تتضاءل وتموت... انخرطت في نحيب يائس وهتفت وهي تلصق خدها بالحجارة الباردة:
- رولف! اعطني فرصة اخيرة لأخبرك كم احبك!
لفها الخوف والظلام الحالك فضيعت كل حساب للزمن، لكن هتافات رولف القلقة كانت تشجعها وتحثها على الاستمرار في مناداته وهي تعلم جيداً انه فوقها في مكان ما، يبحث في كل شق من الشقوق العديدة فيما الظلام يعرقل بحثه وكذلك اصداء صوتها التي تتوزع في جوانب المنحدرات.
كان صوتها قد بح واوصالها تخدرت من شدة البرد حين سمعت صوته المتوتر يناديها من مكان يقع فوقها مباشرة:
- كلير، هل انت هنا؟
اجابته منتحبة:
- نعم، نعم، اخرجني من هنا... ارجوك!
صرخ بصوت مخنوق:
- يا الهي! تذرعي بالصبر لخمس دقائق اخرى، اذ علي ان اجلب حبلاً من الزورق.
شكت في استطاعتها احتمال المزيد، لكنها لم تجرؤ على المجاهرة بشعورها لأنه بدا غاضباً جداً ونافد الصبر من جراء حماقتها... وللحظة واحدة مجنونة تساءلت اذا لم يكن من الافضل ان تتيح لنفسها الانزلاق في غيبوبة كاملة على ان تواجه غضبه الثائر القادر على القتل، لكنه اتخذ القرار عنها حين سمعته يصرخ فيها آمراً:
- اعقدي طرف الحبل حول خصرك واشرعي في الصعود بتمهل، خطوة

خطوة. لا تخافي يا عزيزتي، فلن ادعك تنزلقين.
ظهر القمر فجأة كما لو انه امتثل هو الآخر لأمر منه، فانطرح نوره كضوء مصباح كاشف على تجاويف الصخور. رفعت كلير رأسها، وحين رأت وجه رولف المكفهر والقاسي كالصوان المحيط به، كادت شجاعتها ان تخونها.
هتف بوحشية:
- ما بك؟ ماذا تنتظرين؟
شعرت بسخطه واحتقاره لخوفها فلم تجسر على ان تشكو له اوجاعها وتتذرع بتورم قدميها ويديها الجرحتين. كزت على اسنانها لتقاوم الألم ثم ضغطت بجسمها على الحبل، وما لبثت ان شعرت بجسمها وهو يرفع على مهل الى السطح.
لا بد انه كان يتمتع بقوة رجل مجنون حتى استطاع ان يرفع ثقلها الشديد بواسطة الطرف الآخر من الحبل، وراح في الوقت نفسه يشجعها قائلاً بهدوء:
- حاذري ذلك النتوء الخطر الى يسارك... لا تحني رأسك الى الأمام... تحملي قليلاً يا كلير فأنت على وشك الوصول.
وحالما احست ان ركبتيها اصبحتا تلمسان الارض، مادت الى الأمام ثم انكفأت على وجهها واخذت تبكي وتغمغم شكرها. لكنه لم يسمح لها بأي استراحة اذ سارع الى ادخال رأسها وذراعيها في كنزة صوفية ضخمة الحجم، طويلة الكمين الى حد تدلى معه ثلثا طولها من فوق رؤوس اصابعها. ثم اقتلعها من على الارض وادخلها ذراعيه الوادعتين، وحملها بصمت مكفهر على الدرب المنحدر والمؤدي الى الكوخ وبدأت تقول:
- كان الذنب ذنب الحمل...
لقد حدتها رغبة يائسة على ان تفسر له حقيقة ما حدث، الا ان دوار رأسها ارغمها على قطع عبارتها التي خرجت مشوشة وبلا معنى.
- لقد مات بيتر. حاولي ان تنسيه.
امرها رولف باقتضاب وقد بدا واضحاً ان غضبه الشديد لم يمكنه من اصطناع التهذيب معها.
استسلمت كلياً للعذاب الرائع الذي استشعرته وهو يحملها قريباً من

قلبه فشددت من التفاف ذراعها حول عنقه والقت رأسها على فجوة كتفه، ثم اغرقت وجهها فيها اكثر فاكثر كي تستطيع ان تستنشق رائحته النظيفة الممزوجة بنكهة البحر.

تساءلت بحيرة وحزن، لماذا يبدو وجهه شاحباً ومرهقاً الى هذا الحد؟ لماذا تبدو شفتاه متقلصتين ومطبقتين كشرك محكم الغطاء؟ لماذا تحدق عيناه الواجمتان في خط مستقيم كما لو انه يضع نصب عينيه هدفاً معيناً يسعى اليه بخطى سريعة حثيثة؟

اصبحا امام باب الكوخ ففتحه راكلاً اياه بقدمه، ودلف الى الداخل ليلقيها على المقعد الخشبي المستطيل باستعجال محموم دل بوضوح على رغبته في التخلص منها. قال لها بحنق وهو يتجه الى غرفة النوم بخطوات واسعة:

ـ انزعي عنك تلك الثياب المهلهلة، سأبحث لك عن شيء ادفأ لترتديه. شعرت بآلام يديها وقدميها تتصاعد من جراء دفء المطبخ فردت باختناق:

ـ لا . . . استطيع نزعها.

ـ ولم لا؟

استدار يواجهها وبدا مستعداً لمجادلتها، ثم وقع بصره على قدميها المشققتين فابيض وجهه وقال بشهقة ملحوظة:

ـ يا الهي! ان ما تفتقرين اليه من رشد وتعقل، تعوضين عنه بالشجاعة يا صغيرتي!

غمرتها موجة من الدفء الحالم واحست بانهما شرعا اخيراً يتوصلان الى تفاهم اكبر في علاقتهما، وبخاصة حين طفق يغسل يديها وقدميها برقة متناهية بدت متناقضة بشكل لا يصدق مع تصرفه السابق. بعد ذلك طهر الجروح بسائل معقم، ثم جفف اطرافها على مهل ولفها بضمادات نظيفة. وطوال الوقت كانت لمساته ناعمة كالمخمل.

الا انه عندما حملها الى السرير وغطاها جيداً حتى ذقنها شعرت بقدرة على التعبير عن امتنانها بابتسامة خجولة، وقالت له بصوت يغص بالانفعال:

ـ اشكرك على كل ما ابديته من لطف وعطف.

فحدق بوجوم الى وجهها الجذاب الذي جعله شحوبه الشديد يبدو صغيراً وسط غيم شعرها المنتشر على الوسادة، وقال:

ـ ما هدفت ابداً الا ان اكون عطوفاً يا عزيزتي.

لمست كلير في كلماته رنة عذاب عميق، ثم اردف:

ـ لكني لم اتمكن ابداً من اظهاره كما يجب، اليس كذلك؟ هل ستنامين براحة اكبر اذا اكدت لك انه لن يكون هناك موجب بعد اليوم لأن تخافي مني، وانك لن تحتاجي الى المجازفة بحياتك لتهربي من عواقب طباعي الرديئة؟ كلير، انا عازم على منحك حريتك.

اختلجت احدى عضلات خده بعنف واردف بهدوء:

ـ غداً سأعيدك الى بيتك. وبعد ذلك، ان رغبت، لن تضطري الى رؤية وجهي مرة اخرى.

١٤ - قبل ان ترحل

طوال الليل، أوقعها الألم في شباك السهد، ألم قلب يكويه العذاب وهواجس ذهن يحاصره اليأس. كم يصعب عليها التصديق بأن حياتها القصيرة مع رولف قد اكتظت بسوء الفهم والتفاهم حتى اصبحا غريبين في عالم الحب، وفي اشياء اخرى كثيرة اذ كلما حاولا ايجاد نوع جديد من الاتصال يكتشفان انهما يبثان على موجتين مختلفتين تماماً. هل حقاً وصلت الى نقطة اللارجوع؟ شعرت انها ما تزال محاصرة على تلك الحافة الصخرية الضيقة، البحر تحتها والسماء فوقها فيما الفضاء الواسع يسخر من عجزها عن الطيران!

تقلبت كالمحمومة من جنب الى جنب، وفكرت برولف الذي يبعد عنها بضعة امتار فقط... تخيلته يضطجع داخل كيس النوم، يحدق الى روافد السقف فيما الهواجس تنهش افكاره لاعتقاده الراسخ بأنها حين تركت الكوخ ركضت مباشرة الى جوناثان. ولاعتقاده الأخر والأسوأ بان خوفها منه قد جعلها تفضل المخاطرة بحياتها على ان تواجه غضبه... انخرطت في نشيج جاف احسته يخنق حلقها، وتمنت لو تستطيع ان ترطب المها بذرف الدموع. لكن عينيها امستا كبئر جفت مياهها حتى اخر نقطة. هي، كلير فوكسديل، التي نادراً ما اظهرت مشاعرها ولم تسمح لاعصابها مرة بان تثور، قد اصبحت، منذ زواجها من رولف رامسي، تعاني من كل انواع التطرفات العاطفية... لقد اوجد فيها انسانة جديدة، انبض فيها عروقاً كانت هاجعة. عذبها واغاظها حتى جعلها تظهر عصبيتها ودموعها وشقاءها وعواطفها الحارة. ألقى بها في حضن الطبيعة وعلمها ما لم تكن

تعلمه عن الارض والطير والحيوان. والآن عندما تدفقت الحياة في كل خلاياها واصبحت حاجتها اليه كحاجتها الى النور والهواء، قرر ان يهجرها! ليس لديه مطلق حق في ان يفعل ذلك! هذا القاسي المنحوت من صخر، لا يحق له ان يشعل ناراً ثم يتركها لتنتهي الى رماد! ان حياتها برمتها تتوقف على مساندته وحبه، وبدون وجوده من الخير لها ان تزحف الى اقرب قبر وتضطجع فيه. اجل، حياتها بدونه ستكون نوعاً من الموت البطيء، الطويل، الرهيب...

استيقظت في باكورة الصباح، وعلى الرغم من ان ألم يديها خف كثيراً عن ليلة امس، الا انها استغرقت وقتاً اطول مما توقعت في ارتداء بلوزة بلا اكمام وبنطلون من القطن الازرق كان المفضل لديها. وفور اجتيازها عتبة غرفة النوم بدا واضحاً ان رولف قد استيقظ منذ الفجر. ثم رأت كيس نومه مطوياً وموضوعاً في احد الزوايا مع اغراض اخرى تخصه في انتظار ان ينقلها الى صندوق السيارة. لقد نظف الموقد داخلاً وخارجاً وترك القضيب معلقاً، فيما كان ابريق الماء الذي طالما انست بغنائه يقبع بارداً وفارغاً على رف الموقد الحجري.

لدى سماعها صوت خطواته وهي تقترب من الكوخ استدارت الى الباب لترحب به، لكن قلبها قفز الى حلقها فخرست عن الكلام حين رأته يبدو مذهل الوسامة الى حد يرنح القلوب، وفي نفس الوقت يبدو غريباً تماماً في بزته الرسمية وقميصه الناصع البياض وربطة عنقه المعقودة بأناقة فائقة.

ارتفع حاجباه في تساؤل اخرس عن سبب ارتدائها هذه الثياب العادية، الا ان انتقاده اللفظي لم يكن ساخراً كما توقعت:

- اما كان من الأفضل ان تلبسي ثياباً رسمية تلائم مكانتك الاجتماعية التي ستعودين اليها؟

ارعبتها ابتسامته النصفية الملتوية فقالت باختناق:

- لا اريد العودة، ليس الآن!

رأت ظلاً ينطرح على تقاسيم وجهه كما لو ان مصباحاً انطفأ خلف عينيه، تاركاً اياهما تسبحان في بركتين من الظلام الخاوي. اجابها بأوتار متقلصة:

- عندما تصبح الجراحة ضرورة فيجب الاسراع في شق اللحم. تلك هي الطريقة لتقصير امد الوجع.

وفكرت بلوعة، تقصير امد الوجع، في حين ان كل دقيقة فراق ستكون عذاباً كاوياً؟

اجبرت نفسها على الاحتفاظ بهدوئها، وبدأت تكافح من اجل سعادتها وسلامة عقلها... يجب ان تكسب الوقت بطريقة ما، لبضع ساعات على الأقل، حيث قد تستطيع ان تقتنص فرصة ملائمة لتتحدث اليه بهدوء وتعقل، حتى ينجلي ما قام بينهما من سوء تفاهم وافتراضات خاطئة. لكن لا يجب ان تدعه يفطن الى مناورتها له، فنجاح خطتها يعتمد على الزمان والمكان المناسبين، وعلى مزاجه الذي يجب ان يكون صافياً وقابلاً للحوار.

قالت تستحثه:

- لقد استمتعت بنزهتنا البحرية الى حد بعيد مما يجعلني ارغب الآن في القيام بنزهة اخيرة الى الجزيرة. لا حاجة لأن تستغرق منا وقتاً طويلاً.

رأت في عينيه بوادر اعتراض عنيف فأردفت وهي تصطنع الهدوء واللامبالاة:

- سنمضي ساعتين فقط وبعد ذلك...

هزت كتفيها واكملت:

- عندئذ، نغادر المكان.

بدا ان هزة كتفيها وتقبلها الهادىء لفكرة فراقهما، فتحا في داخله جرحاً مؤلماً. رأت عينيه تختلجان من الصدمة فودت لو تركض الى ذراعيه لتمسح عن جفنيه الألم، لكنه سرعان ما سيطر على مشاعره ووافق متردداً على تلبية رغبتها الأخيرة بحسب تصوره.

- لا مانع لدي ان كان هذا ما تريدين.

ثم نظر بأسى الى بزته الرسمية واردف:

- اظن من الافضل ان ابدل ثيابي.

بعد ان تناولا فطوراً سريعاً اقتصر على خبز بائت وحليب طازج استطابت كلير مذاقه اكثر مما لو كان عسلاً صافياً، انطلقا معاً في اتجاه الشاطىء. قبل ان يغادرا الكوخ كان رولف قد اصر على فحص قدميها وعلى تبديل الضمادات، لكن بالرغم من قلقه ووساوسه فقد اضطر الى

الاقرار، في ضوء النهار البارد، بأن الجروح كانت سطحية وانها تلتئم باطراد بفضل عنايته الطبية.

وبالرغم من تأكيده ذلك، قررت بعد ان قطعا مسافة مئة متر انه بات في امكانها الآن ان تصطنع العرج، ليس بطريقة مسرحية متكلفة تثير ارتيابه وتحمله على الغاء الرحلة، انما بطريقة خفيفة لتثير فيه بعض الاهتمام.

نجحت خطتها الصغيرة كما توقعت، اذ انه لاحظ فوراً مشيتها المضطربة، وبدون ان ينطق كلمة واحدة سارع الى حملها بين ذراعيه حيث تمنت بالضبط ان تكون.

تجرأت على ان تغمغم قائلة:

- رولف، هل يمكننا التوقف على قمة الصخور؟ اريد ان ابين لك كيف استطاعت بولي ان تحشر نفسها في ذلك المكان الضيق في منتصف المنحدر.

توقف فجأة عن السير محدثاً فيها رجة مباغتة وسأل بوجه صارم:

- بولي؟

ثم اطبق فمه وبدا انه يجد صعوبة في التنفس، لكن بما انه كان قد حملها مساء امس بمنتهى السهولة فقد كتمت ابتسامة انتصار ماكرة لتأكدها من السبب الحقيقي الذي الهث انفاسه.

وقالت تشرح له بلطف:

- انها شقيقة بيتر التوأم. رأيتها امس محاصرة على الحافة وعندما هبطت الى مكانها لأساعدها على الخروج من محنتها، استطاعت الخروج عبر فتحة ضيقة لا تتسع الا لمرور حيوان صغير.

- اذن انت لم...

قطع عبارته وحدق الى الأفق بعينين ضيقتين.

اجابته باحتراس:

- كلا، انا لم اتعمد القفز الى حافة الهاوية.

اخذت تلف خصلة من شعره حول اصبعها البض وهي تفكر في مدى التناقض بين لون جلدها ولون الخصلة السوداء كطبعه المكفهر عندما يثور، والقوية الحريرية كجسمه الملوح باشعة الشمس.

وقال يستنتج بايجاز وكأنه لا يرغب في اسقاط اللوم عن نفسه:

- اذن كنت مخطئاً في هذه الناحية. يسرني ذلك.

وهنا قررت بحكمة ان لا تتمادى في الموضوع وركزت على البهجة التي تستشعرها وهو يحملها بين ذراعيه في اتجاه البحر المتألق بأشعة الشمس والمعمم بأمواج صغيرة يحدثها الهواء العليل الذي يشر باستمتاع واثارة عندما اقتحم بهما الزورق عباب المياه في اتجاه الجزيرة. لقد اجتازت كلير العقبة الأولى بنجاح وابتهلت الى الله ان يجعل الحظ حليفها حتى تتمكن من اجتياز سائر العقبات وتخرج بالنتيجة المرجوة.

الرحلة في الزورق فاقت كل توقعاتها اذ كانت عليلة، منعشة تطلبت منها تعاوناً كاملاً مع رولف. وفي لحظة استمتاع محض نزعت الدبابيس من شعرها ووقفت عند مقدمة الزورق تعيد الى الذهن مشهد تمثال نصفي يزين مقدمة مركب اسكندينافي طويل، وتركت سياط الريح الخفيفة تبعثر خصلاته الناعمة. وفيما كانا يقتربان من الجزيرة ادارت بحركة عفوية وجهها الضاحك صوب رولف، فتثلجت اطرافها حين رأت تعبيره القاتم وفكه الصخري البارز.

وفي محاولة منه لأن يبدو ودوداً لطيفاً، فقد اغتصب ابتسامة لم تصل الى ابعد من شفتيه المائلتين وقال معترفاً بجمود:

ـ هذه اول مرة ارى فيها السعادة تطفح من وجهك. ان ارتفاع معنوياتك ان دلت على شيء فعلى اني اخطأت في معاملتي لك كزوجة اسيرة.

ازداد وجهه كآبة وتابع يعترف بمرارة:

ـ لقد قيدتك الي بالاصفاد والسلاسل لكن العدالة كانت لي بالمرصاد وها هي تحكم علي اليوم بشرب الدواء المر نفسه.

فتذكرت كلير عبارة تقول، ان التي تولد في قفص تحن دائماً الى الاقفاص... كانت على وشك ان ترددها لرولف الا انها ردعت نفسها عن ذلك... الزمان والمكان مناسبان لقولها، لكن مزاجه معكر كبركة موحلة.

وهذه المرة، عندما وصلا شاطىء الجزيرة لم يمسك بها اكثر من الوقت المطلوب لحملها الى الشاطىء، ثم تجاهل كلياً امر قدميها المخدشتين وسار مبتعداً عنها وخطواته المارقة تعطي انطباعاً بانه في اشد اللهفة الى القيام برياضة منشطة. احترمت حاجته الى الانفراد بنفسه، فمشت في اثره

بخطى متمهلة وهي تشعر ببعض الخجل من الطريقة المقصودة التي تلاعبت بها بعواطفه واحاسيسه. لكنها احست نفسها تنحشر في زاوية فاتبعت هذه الوسيلة على الرغم منها لأن عواطفه المطبقة على بعضها الى درجة التقلص تحتاج الى لغم يفككها، ولو نتج عن ذلك عواقب خطيرة. لكن توتراته قد تنفجر في احد اتجاهين او بركانين، فاما بركان غضب حارق او بركان حب لاهب، وفي كلا الحالين ستتوصل الى الحقيقة التي تنشدها وتصر على معرفتها... هل عواطفه الاساسية تجاهها هي بدافع الحب او بدافع الاحتقار؟

بعد فترة من التجول والتفكير وجدته مستلقياً على رمال الخليج الصغير حيث سبحا في اثناء رحلتهما الأولى، هل حقاً لم يمض عليها سوى ايام قليلة، كان قد نزع قميصه واستلقى على بطنه مسنداً رأسه الى باطن ذراعه. لم يرفع بصره لدى اقترابها، لكنها تأكدت من احساسه بوجودها اذ رأت عضلاته تتقلص تحت جلده البني كلون القهوة والمشدود كحرير املس على كتفيه القويتين.

ادركت ان الوقت حان لمتابعة حملتها العاطفية فاستلقت الى جانبه متنهدة. غرفت حفنة من الرمل واخذت تمررها بين اصابعها المفتوحة قليلاً، حيث تساقطت بنعومة على عنقه وظهره.

قالت له بعفوية مدروسة:

ـ لقد تعرفت الى امك يوم امس. انها سيدة لطيفة واود ان اتعرف اليها اكثر.

فاستدار ليستلقي على ظهره وقال وهو يحدق فيها باستغراب:

ـ امي؟ كيف استطعت رؤيتها؟ انها ما تزال في مونتريال.

هزت رأسها نفياً وقالت بجدية:

ـ تبادلت وإياها حديثاً قصيراً، بيد اني استنتجت منه انها تضايقت منك الى حد ما لكونك رفضت ان تؤجل موعد زفافنا كي تتيح لها الوقت الكافي للمجيء من كندا لحضوره. لكن الذي حدث بعد ذلك ان احد المسافرين الغى رحلته في اللحظة الأخيرة على الطائرة التي وصلت هنا بتاريخ يوم زواجنا، وهكذا ابتاعت البطاقة وتمكنت من المجيء. يمكنك ان تتصور مدى خيبتها حين وصلت بيت ابي واكتشفت اننا غادرناه قبل ساعتين فقط

من وصولها.

كان يصغي الى حديثها بصمت تام وبدون ان تصدر منه اقل حركة. ولما انتهت قال بشيء من التأنيب:

ـ لقد تغيبت عن الكوخ لبضع ساعات فقط، ومع ذلك وجدت وقتاً للتعرف الى امي وللتحدث معها؟

فأكدت له بهدوء وقد ادركت ان امه لم تكن بيت القصيد في سؤاله:

ـ ذهبت رأساً الى البيت وعدت رأساً الى الكوخ.

ـ اذن لم . . .؟

ـ لم ار جوناثان؟ كلا لم اره ولا ارغب في رؤية وجهه ثانية.

كانت تواجهه بنظرة ثابتة من عينيها الرماديتين ثم اشاحت عنه وراحت تراقب حبيبات صغيرة من الرمل رأت الهواء يقذفها ويطيرها مثلما كانت اللوعة تتقاذف قلبها الخافق. احست بنظرات رولف تغوص في وجهها لكنها لم تجرؤ على رفع بصرها كي لا ترى في عينيه رسالة معينة لا تود ان تقرأها. هل هي تجرحه بالحاحها اكثر مما يجب؟ ثم قفز الى ذهنها تساؤل آخر ارعب قلبها، هل يعقل ان جاذبيتها اصبحت عديمة التأثير عليه، وانه كان يستغل تصادماتها المزاجية ويتخذ منها ذريعة ليتخلص منها؟

لكن الادانة الذاتية المريرة كانت تثقل كلماته عندما قال اخيراً من بين اسنانه:

ـ اذن كنت مخطئاً بالنسبة الى سبب هروبك مساء امس، واخطأت للمرة الثانية عندما اتهمتك باللجوء الى جوناثان هيوود. لا حاجة بك الى الاستمرار في تعداد تصرفاتي المخزية والحقيرة. اطمئني، فقد تلقيت الرسالة على ما اظن. وعلى الرغم من ذلك، ارفض الاعتذار عما حصل لحملك المدلل.

صمت لحظة ثم اردف بعنف:

ـ الحيوانات اوفر حظاً منا، فالخلاص من الألم يتم بسرعة بالنسبة اليهم في حين نرغم نحن البشر على المعاناة الى ما لا نهاية.

قفز واقفاً على قدميه كدب تنغرز فيه اشواك مؤلمة تزيد ثورته اضطراماً، وقال بصوت راعد وغضبه يبدو موجهاً الى نفسه وليس اليها:

ـ سأذهب لاستحم في البحر. مهما يكن الأمر، لن انتظر حتى اسمعك

تصححين لي خطأ آخر يضاف الى سائر اخطائي، وهو تصوري الأحمق بأنك قد تتعلمين في يوم ما ان تخففي من كرهك لي، بالرغم من مقاومتك العنيفة لتصرفاتي!

احست بوحدتها للمرة الثانية، فعادت تغرق في الرمل وتتكور على نفسها ككومة منبوذة متهاوية. انها مهما بذلت من جهود ومحاولات مضنية فلن تستطيع ان تخترق الحاجز الشائك الذي شيده رولف حول نفسه. لقد كانت ساذجة في تجاوباتها ومليئة بتحفظ خجول انما كان باستطاعته حتماً، لو اراد، ان يقرأ تشجيعاً في تقرباتها الحيية. لكن، وهنا رفرف الأمل في صدرها كجناحي فراشه، من المحتمل ان تقرباتها تلك لم تكن واضحة تماماً بالنسبة الى رجل مثله اعتاد على الصد وعاش معمياً بالكبرياء ومثقلاً بمشاعر الذنب. الحل بدا لها واضحاً كعين الشمس! يجب ان تكثف حملتها الاغرائية وان تفعل كل ما في وسعها لتثبت له حبها بدون ان تعترف به لفظياً وبكلمات ساحرة. انها لا تستطيع مطلقاً ان تعبر له عن مشاعرها بالكلام، فاذا اخفق اعترافها في تحريك عواطفه المتقلصة، او اصابه بالاحراج، ستكون رغبتها الوحيدة عندئذ ان تتكور على نفسها وتموت!

لم تغفل عن الاتيان بثوب سباحة، وفيما هي ترتديه بارتباك وصعوبة لم تملك الا ان تحسد رولف على ما يتمتع به من حرية في العمل والتفكير، وتمنت لو انها تملك ما يكفي من الجرأة لكي تحذو حذوه. وقبل ان يخونها مخزونها البسيط من الشجاعة ركضت تقطع الشاطيء، ثم غطست في البحر واخذت تسبح في اتجاه الرأس الأسود الذي رأته يتحرك على سطح الماء. لكنه حالما رآها تقترب منه لوح لها بذراعه محذراً وشرع يسبح بضربات قوية ليصل مكانها بسرعة.

كانت قد تجاوزت العمق الذي اعتادت السباحة فيه واوغلت في البحر عندما ارتفع رأس رولف فوق السطح والتقت عيونهما عبر المياه الفاصلة بينهما.

ـ لا تتقدمي اكثر فهناك تيار قوي تحت السطح. ابقي حيث المياه هادئة وحيث لا توجد تيارات عنيفة قد تعرضك للخطر.

شعرت بالأمواج تبرد من حولها فأجابته وهي تشهق:

ـ تبدو وكأنك تحذرني من خطر الدخول الى مجرى حياتك.

- وهل انت في حاجة الى هذا الانذار؟

ارتعدت كرهاً من لهجته الجافة المتعالية وتابع هو قائلاً:

- هل سمعت بعبد يتردد في الهرب من سيد طاغية؟

كان رذاذ الماء يغطي شفتيها فلعقتهما بحركة عصبية ووجدت مرارة في مذاق البحر المالح. ترددت قليلاً ثم اجابت:

- انت تبالغ في نقدك الذاتي يا رولف. ليس غريباً ان نحب الناس احياناً بسبب نقائص معينة فيهم لا ان نحبهم دائماً من اجل حسناتهم فقط، ونشعر اننا مجبرون على تحمل تلك النقائص.

- اذن، الحب في نظرك هو كيوبيد المجنح والمعصوب العينين، أليس كذلك يا عزيزتي؟

ألقى رأسه الى خلف وكأنه سينفجر ضاحكاً ثم عدل عن رأيه. تابع السباحة حتى بات على مسافة ذراع منها حيث اعتقل ذقنها المبلل بين ابهامه وسبابته، وقال وهو يتأمل محياها باكتئاب كاد ان يحطم قلبها:

- دعيني انظر اليك يا ملاكي. دعيني انظر اليك بعمق لمرة واحدة اخيرة، مع اني استبعد جداً ان استطيع نسيان الوجه الذي فقدته، فكل بحر ومادي سوف يذكرني بعينيك المائجتين. وفي صباح كل يوم مشمس سأتذكر مشهد شعرك الرائع وهو يتطاير على اجنحة نسيم لعوب. وفي وجه كل طفل طاهر بريء سأرى فمك يتهدل بحزن واهدابك ترتخي تحت ثقل الدموع. هناك خاطرة اريدك ان تعزي نفسك بها، فبعد ان تزول آثار المعاناة من ذهنك وقلبك بوقت طويل، سوف استمر في التكفير عن اكبر خطأ ارتكبته في حياتي. ففي الماضي كنت انظر الى الحب نظرة دنيوية واعتبره مجرد رغبة تنتهي فور اطفائها. لكني ادركت اليوم ان الحب هو الوسيلة الوحيدة للهروب من الوحدة التي تلاحق الانسان في معظم مراحل حياته!

بعد لحظة اختفى عن بصرها وبقيت صورته تموج في عينيها المبللتين برذاذ مالح لاسع ودموع مالحة تتجمع قطرة اثر قطرة.

اخذت تسبح في الاتجاه المعاكس وهي تجر قلبها الثقيل ثقل قدميها اللتين احستهما تجرجران اصفاداً فولاذية... وداعه بدا نهائياً وحاسماً، الأمر الذي سد عليها ابواب الأمل ولم يترك سوى كوة صغيرة شحيحة.

لكن في مكان عميق من كيانها احست بولادة عاطفة كامنة، لم تكن غريبة ابداً عن اجدادها الاسكندينافيين، عاطفة حثتها على مواصلة القتال وألهبت صدرها برفض عنيد للاقرار بالهزيمة... في الليلة السابقة وهي معلقة على شفير هاوية بين الارض والسماء ابتهلت الى الله ان يمنحها فرصة اخيرة لتخبر رولف انها تحبه، وهي ما كانت لتحصل على تلك الفرصة لو ان القدر اراد لها الهزيمة!

كانت الرطوبة الممتدة هنا وهناك في بنطلونه القطني الداكن دلالة اكيدة على انه ارتداه بدون ان يكلف نفسه عناء تجفيف ساقيه المبللتين. اما جسمه الأسمر الفارع والمنبسط كنسر تحت الشمس فقد بقي ساكناً بلا حراك حين اقتربت منه وجثمت على ركبتيها على بعد خطوات قليلة. كانت تظلل عينيها بيديها الا انها استطاعت ان ترى فمه المتقلص بخطوط صارمة وحنكه الحاد كحافة فأس.

- رولف...

ثم غصت بريقها وترددت في الكلام.

فأجابها بصوت مرهق جعل خفقات قلبها تتعثر:

- ارتدي ثيابك يا كلير. حان الوقت لأن اعيدك الى بيتك.

احست بعقدة كبت متينة تنفجر في صدرها فهتفت:

- كلا!

ضربت بكرامتها عرض الحائط واخذت تزحف على ركبتيها في اتجاهه، ثم طرحت جسمها المرتجف المبتل على الأرض وطفقت تردد كالمحمومة وهي تحدق في عينيه المذهولتين تناشدهما الرحمة اوالاستجابة:

- انا احبك... انا احبك... انا احبك...

بدا انها لن تكف عن تكرار الكلمات كما لو انها اسطوانة عالقة، فاطلق رولف لعنة مبحوحة ثم استدار اليها ليحضنها بلهفة حنونة ثم اسكتها بعناق طويل.

شعرت ببهجة وهو يفتح لها عواطفه الكامنة ويغرق معها في الرمال، ثم استجابت لضمته بحرارة اذهلته لدى اكتشافها انها رغم القوة الضئيلة التي تمتلكها كانت تمتلك بالمقابل سلطة جبارة على تقليص هذا الرجل المزهو المغرور الى مستوى عبد مرتجف ومتذلل.

زأر يهددها بصوت معذب مهزوز:

ـ لا تمارسي معي هذه الألاعيب الاحتيالية يا كلبي، فلقد تحملت منك حتى طفحت كأسي!

فقالت تستفزه برقة:

ـ ايها الرحالة العنيد الرائع، حسبت انك تحصل دائماً على ما تريد؟

بعد ذلك بفترة طويلة، ادركت ان حياتها ابتدأت من تلك اللحظة، مع هذا الرجل الفائق الرقة، الحار العواطف، المتواضع، سليل الشمم والاباء الذي علمها كيف تكره، انما نجح في ذلك اكثر من نجاحه في تعليمها الحب!

حلقت بها النشوة عالياً، وغمغمت قائلة:

ـ حبيبي رولف، اياك ان تشك ثانية في عمق حبي.

انتابته رعدة اضعفت هيكله الصلب الا انه ضحى بثانية ثمينة ليقول مداعباً وهو يبدو قريراً كدب انتهى لتوه التهام جرة من العسل:

ـ كيف لي ان اشك فيه يا اميرتي المتغطرسة وقد جئت الي ساعية على ركبتيك!